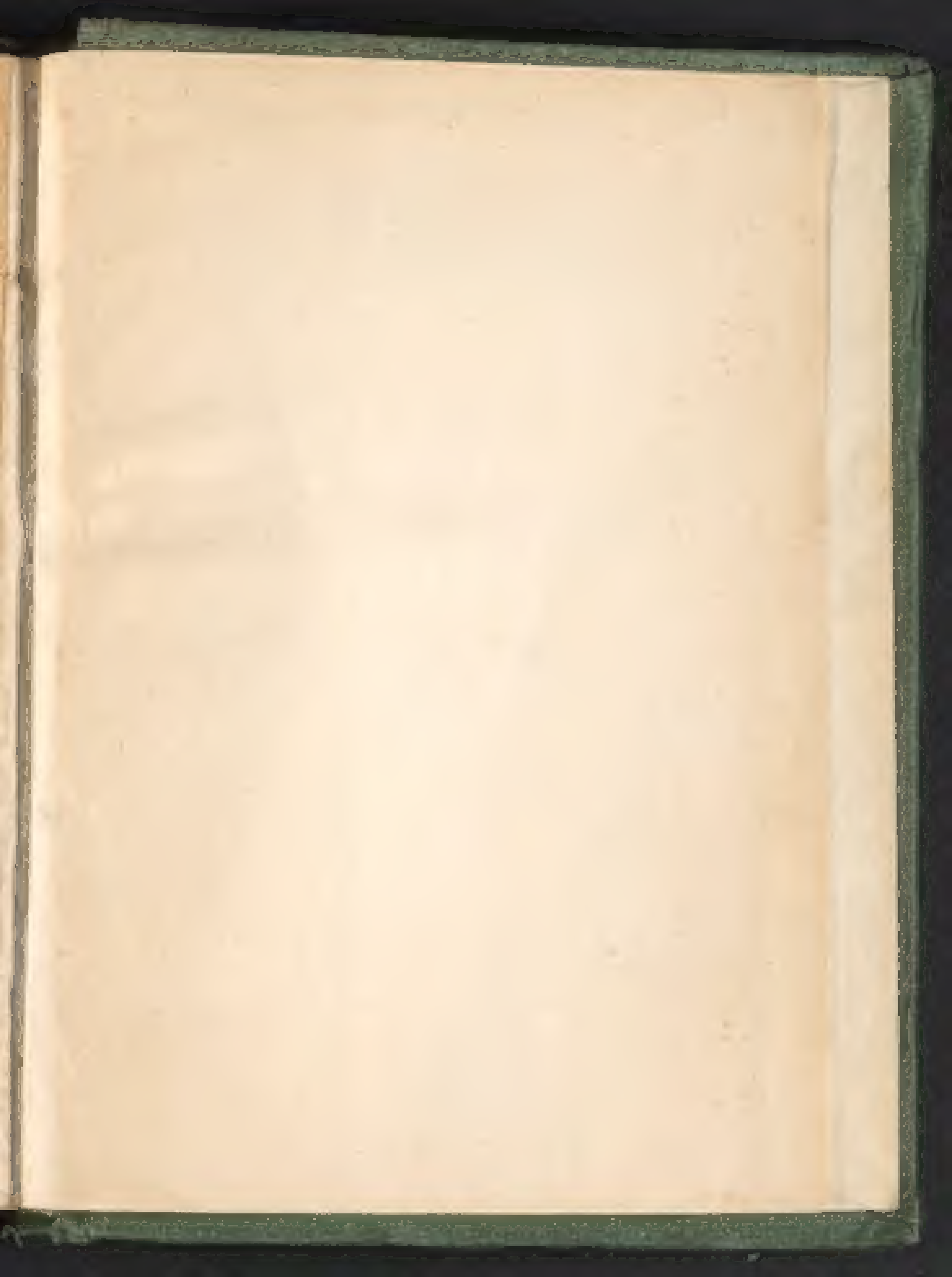

اب الهلال
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01031 1458
هرون الرشيد
تأليف
الدكتور أحمد أمين بك
سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال
٨



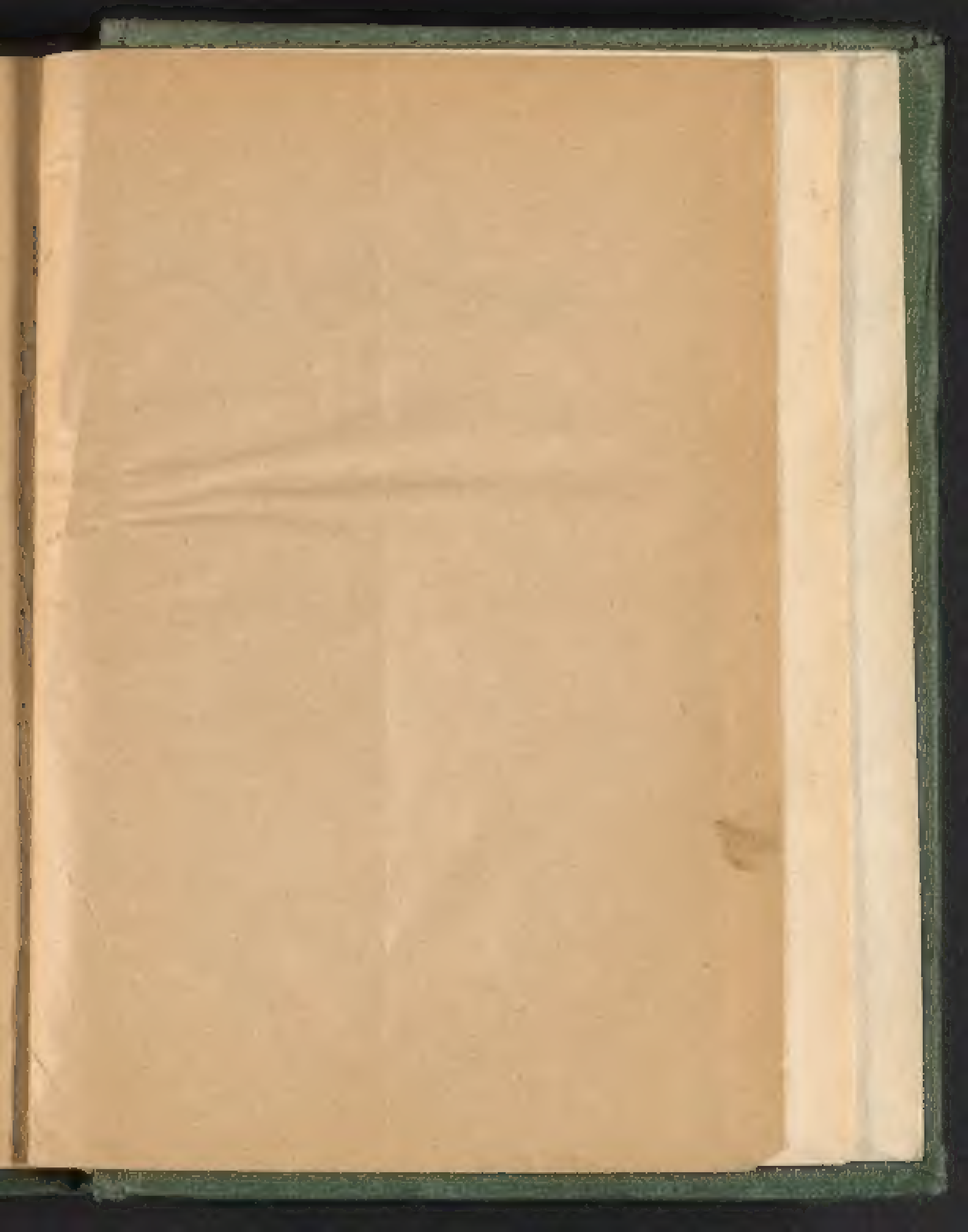


هرون الرشيد

تأليف

الدكتور أحمد أمين بك

دار الهلال بمصر



مقدمة

طلبت الى دار الهلال أن أضع كتابا عن هرون الرشيد ، فاغتبطت بهذا الطلب لأنى أحبه . وربما كان سبب حبى له أنه رجل عاطفى ذواق ، يخضع للمؤثرات الوقتية . فيصلى مائة ركعة كل يوم ويحج ماشيا ، ويهيم من ناحية أخرى بالجمال والغناء ومجالس الشراب . ويحدثه أبو العتاهيه حديث الزهد فيبكى حتى تخضل لحيته ، ويقول له ابن أبى مريم نكتة فيضحك حتى يستلقى على قفاه . ويرضى عن البرامكة فيطلق لهم العنان . ويغضب عليهم فينكل بهم أشد النكال

ورجل كهذا يكون ـ عادة ـ صريحا صادقا .. وأحبه أيضا لأنه أعلى شأن الشرق في الغرب . فكلما ذكر هرون الرشيد ، تخيل الغربيون الشرق بفتنته العجيبة وجاذبيته الساحرة . والسبب فى ذلك كتاب ألف ليلة وليلة وما أضفت عليه علاقته بشارلمان من فخفخة واجلال ، وتوالى الوفود منه واليه ، وحركة التجارة بين الشرق والغرب فى أيامه الى غير ذلك

ويضاف الى هذا كله ما رزق من حسن حظ .. فكثير من

الخلفاء قبله وبعده كمعاوية ، وعبد الملك بن مروان ، وهشام ابن عبد الملك ، وعبـــد الرحمن الداخــل ، وعبد الرحمن الناصر ، والمأمون ، كانوا خيرا منه

وغلطة كغلطة البرامكة كانت تكفي لأن تطوح بذكره ، وتصغر من شأنه .. ولكن هي الظروف وهو الحظ ، حتى ان بعض كبار المؤرخين كابن خلدون نصبوا أنفسهم للدفاع عنه وتصويره كأنه نبي كريم لا يصح أن يغني ولا أن يشرب ولا أن يزل

كل هذا ونحوه ، جعله محبوبا عالي الذكر بعيد الصيت

وقد عمدت الى كتابته بأسلوب عصري ســـهل يناسب جمهور القــراء ، فلم أتعمق فيـــه تعمقا يجعله ثقيلا ، ولا اغرقته بذكر المصادر كما يفعل الجامعيون ومن نحا نحوهم والله يرزقه من الحظوة ما رزق الرشيد

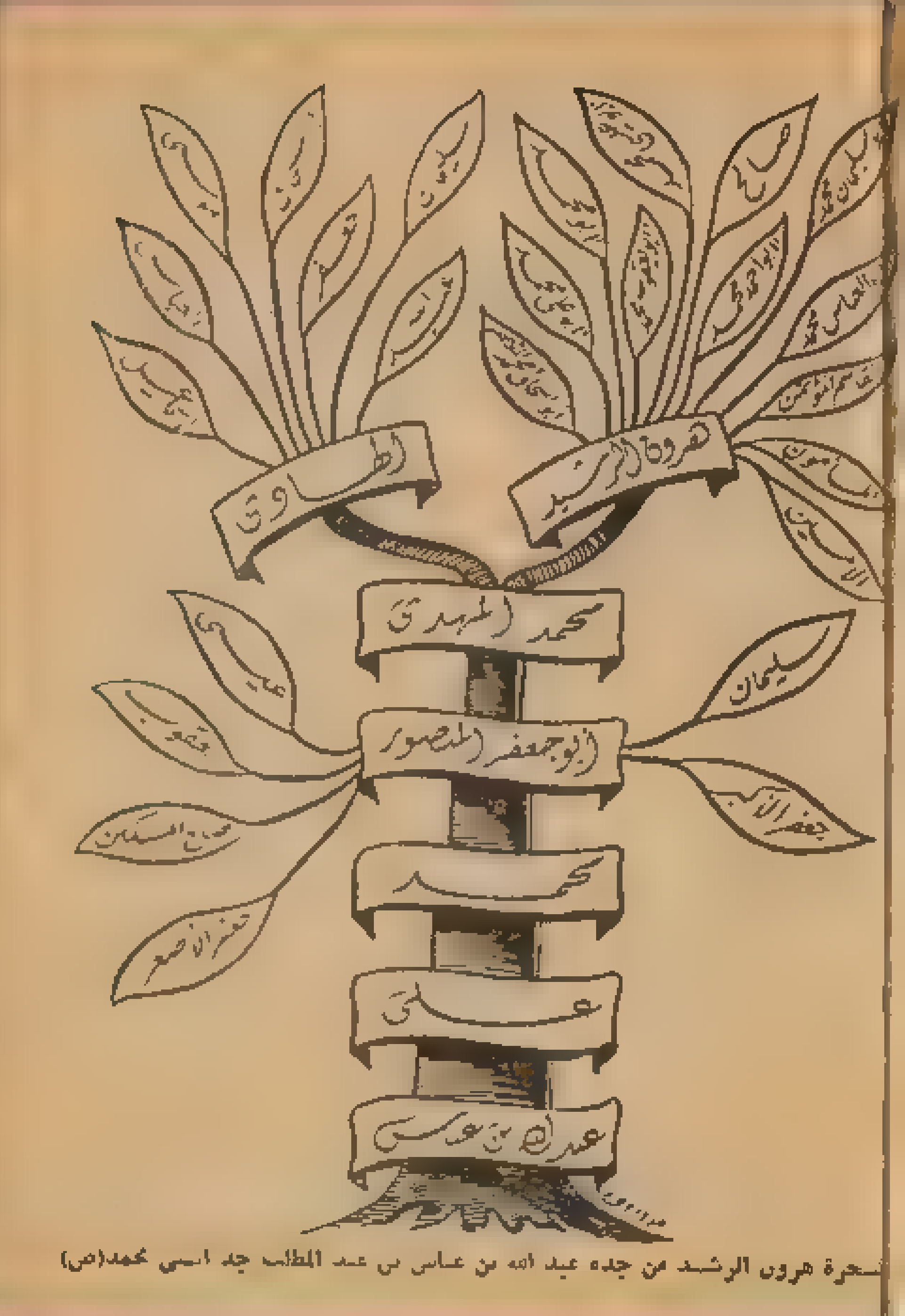
احمد امين



هرون الرشيد بريشة « جبران خليل جبران »

الرشيد فى سطور

- ولد هرون الرشيد بلدة « الرى » بطبرستان فى آخر ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ وقيل فى أول المحرم سنة ١٤٩هـ
- بويع بالخلافة يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ فى صبيحة الليلة التى مات فيها أخوه الخليفة الهادى
- استوزر الرشيد سنة مبايعته بالخلافة يحيى بن خالد البرمكى ودفع اليــه بخاتمه قائلا : « قد قلدتك أمر الرعية ، فاحكم فيها بما ترى »
- فى سنة ١٧٦ هـ خرج عليه يحيى بن عبد الله بالديلم ، فارسل اليه الفضل بن يحيى فى خمسين الفا ، وأعاد الأمن الى نصابه ، وقد تمكن من اخماد عـدة فتن فى الجزيرة ودمشق فى سنتى ١٧٧ ، ١٧٨ هـ
- فى سنة ١٧٥ هـ عقد الرشيد لابنه محمد ابن زوجتـه زبيدة بولايته العهد من بعده ، ولقبه « الأمين » وعمره وقتئذ خمس سنوات
- فى سنة ١٨٢ هـ بايع الرشيد لابنه « عبد الله » بولاية العهـد بعد محمد الأمين ، وولاه خراســـان ، ولقبه «المأمون» وبايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ، ولقبه « المؤتمن » وولاه على الجزيرة والثغور
- خرج لمحاربة رافع بن الليث بخراسان فى جيش كبير من « الرقة » سنة ١٩٢ هـ وقد بدأ مرضه
- مات سنة ١٩٣ هـ بعد أن قضى فى الولاية ٢٣ ســـنة وشهرين و ١٨ يوما



شجرة هرون الرشيد من جده عبد الله بن عباس بن عبد المطلب جد النبي محمد(ص)



ميلاد دولة



للدول عمر كما للأفراد .. طفولة ومراهقة ،
وشباب ، وكهولة ، وشيخوخة . وعمر الأفراد أيضا ..
مختلف ، فبعضهم لا يعيش ، يموت في مهده ، وبعضهم
يطول ويعيش ، يولد ضعيفا معافى بعد ضعف ، ويطول
عمره . وهي كذلك كالأفراد ، يعيش أحدها ، ويموت بعضها
وأحيانا يدب فيها الضعف ويعرف ضعفها فيعيشوا حتى ينتهي
أجلها . وهي أيضا قد يطول عمرها وقد يقصر ، والملاحظ
في الدول في أول نشأتها أنها تسير في عمرها ، ثم يأتي
الخلف من بعدهم فيضيعوا مجدها ، فيقصر عمرها ، فنجد
مثلا أن عمر دولة الخلفاء الراشدين كان نحو ثلاثين عاما ،
وعمر الدولة الأموية كان نحو تسعين عاما ، ثم جاءت
الدولة العباسية فعاشت أكثر من خمسمائة سنة

والدول الحديثة تختلف من حيث عمرها عن الدول
اليونانية والرومانية ، وغيرهما من الدول القديمة في طول
أعمارها .. فطال عمرها كثيرا ، ولا يعلم إلا الله متى تنتهي ،
ولكنها على كل حال في النهاية محكومة كالأفراد والأمم
وهي الفناء . والدولة الأموية التي سبقت الدولة العباسية
أحدث في الفناء من بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، واستمرت
في طلوع الروح نحو ثلاثين سنة

أسباب سقوط الدولة الأموية

ولسقوط الدولة الأموية أسباب ، منها أن الأمويين
شددوا النكير على العلويين وطاردوهم أشد مطاردة ، وكان أولاد
الحسين بعد مقتل أبيهم صغارا ، فلما شبوا أرادوا أن يثأروا
وحاولوا أن يأخذوا بثأر أبيهم ، وكان أول خطوة في سقوط

بني أمية قبل سليمان بن عبد الملك لأبي هاشم . وقد عهد
أبو هاشم عند قتله إلى محمد بن علي رأس العباسيين ، وكان
الأمويون يحذرون العلويين أكثر مما يحذرون العباسيين .
ولذلك أمكن العباسيين أن ينشروا دعوتهم ضد الأمويين في
اطمئنان

٢ — الثاني أن الدولة الأموية كانت رجالها العظام أسسوا
ملكها . والرجال العظام في الدول قليل فلما فقدت الدولة
الأموية رجالها فقدت جانبا عظيما من قوتها . وكان من
رجال الدولة الأموية المخلصين موسى بن نصير فاتح
الأندلس ، وخالد بن عبد الله القسري ، ويزيد بن المهلب
وقتيبة بن مسلم . ومن خطأ الخلفاء الأمويين ظلمهم لأمثال
هؤلاء الرجال ، فقتلوا بعضهم كخالد بن عبد الله ، وقتيبة
ابن مسلم ، ويزيد بن المهلب ، وزج بموسى بن نصير في
السجن

٣ — الثالث ، وهو تباعد أطراف المملكة بسبب الاتساع
في الفتوح ، فقد اتسعت دائرة ملكهم ما لم تتسع قبلهم من دولة
الرومان ، فمن بين النهرين المعروف بالجزيرة ، وإيران
وقسم من الأفغان ، وتركستان ، والقوقاز ، وأرمينية
وشبه جزيرة العرب ، وسوريا ، ومصر ، والمغرب
والأندلس ، كلها دخلت في حوزة سلطانهم . وضبط هذه
الأقطار المختلفة المترامية الأطراف صعب جدا ، وخصوصا
إذا كان الخلفاء ليسوا بالأقوياء الحازمين ، بل من الضعفاء
الذين يجرون وراء شهواتهم . ولذلك كان من حزم الدولة
العباسية ومن قواعدها الأساسية عدم التوسع في الفتوح .

يضاف الى ذلك ما حبا الله به العباسيين من أعمال أبي مسلم الخراساني الذي نجح نجاحا باهرا في الثورة على الأمويين والدعوة للعباسيين . فاستطاع بذلك أن يسقط من العرب جزاء وفاقا لما أسقط العرب من الفرس في مبدأ الاسلام . وكان رجلا عظيم الشخصية جبارا أدار الحرب على الأمويين في مهارة ونشاط وقسوة حتى نجح . ومع ذلك كافأه أبو جعفر المنصور أسوأ مكافأة بقتله بعد أن مهد له الطريق وأزال منه كل ما اعترضه من عقبات .. شأن الأمويين في نوادر رجالهم ، وشأن الرشيد - فيما بعد - فيما فعله مع البرامكة

كل هذه الأسباب تجمعت وكانت سببا في سقوط الدولة الأموية وقيام العباسيين بعدهم ينكلون بهم ويفتكون بكل من عثروا عليه منهم

الأمويون والعباسيون

على كل حال ما أكبر الفرق بين الدولة الأموية والدولة العباسية .. كان الأمويون يحكمون البلاد حكما عربيا فيه بساطة وفيه عيوب العقلية . أما العباسيون فكانوا يحكمون البلاد حكما فارسيا . وكانت قصور الخلفاء الأمويين قصورا فخمة بسيطة كالذي نشاهده من آثارهم . وكانت قصور العباسيين فخمة معقدة . وكان المثل الأعلى للأمويين أمراء غسان وأمثالهم . أما المثل الأعلى للعباسيين فالأكاسرة . وكان الولاة في العهد الأموي ذوي عقلية عربية أمثال زياد بن أبيه . والحجاج ، وخالد بن عبد الله القسري . أما

فى الدولة العباسية ثورة زعيم أعمال أمر مكة ممن يرعون نزعة فارسية وهكذا ...

وربما اتفق الأمويون والعباسيون على أشياء أهمها [illegible]

ولا تنحصر الخلافة فى بيت واحد .. هؤلاء يحصرونها فى الأمويين ، وهؤلاء يحصرونها فى العباسيين . وتجرى الخلافة على قانون الوراثة لا على قانون الشورى . ورأى أهل الحل والعقد . وكذلك يتفقون فى أنهم جعلوا الخلافة أى ملك عضوض

الملك العضوض

والفرق بين حكم الشورى والملك العضوض ، أن الأول لا ينحصر فى بيت ولا فى ولى عهد ولكن باستشارة أهل الحل والعقد فيمن يتقدم . وبذلك قالوا ان بيعة عمر لأبى بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها

أما الثانى فكان الخليفة يعمل على تولية من رأى أن يخلفه ولو كان من أهل مخالفته . كما فعل معاوية مع يزيد وكما فعل الرشيد مع الأمين

على أن كلا من الأمويين والعباسيين حاربوا العلويين وكرهوهم واستطاعوا تقسيم صفوفهم ، مما نتج سلسلة طويلة كالتى رواها أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « مقاتل الطالبين »

ولقد تكاتف العباسيون والعلويون على إسقاط الدولة الأموية ثم انفرد العباسيون بالدعوة على أساس آخر

ذلك أن الذي قام بعده بدعوة أبو هاشم عبد الله بن محمد ، وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة ، فأسس بطريقة حديثة خلاصتها أن زعامة الإسلام أو وجهة بعد مقتل الحسين لم تنتقل إلى علي بن الحسين ، إنما انتقلت إلى محمد بن الحنفية الذي أوصى بعده إلى ابنه عبد الله أبي هاشم، وهذا أوصى عند وفاته إلى محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس، وهذا أوصى إلى أبي العباس عبد الله ابن محمد ومن بعده إلى أبي جعفر المنصور . فراجت هذه الدعوة في بعض البلاد وعاونهم في ذلك أنها باطنية تعتمد على منهم أن يتعاونوا الشيعيين ولا يكاشفوهم قوة حتى إذا استقطوا جميعا الدولة الأموية سهل تغلبهم على بني عبد الله ابن عباس

وكانوا في ذلك مخطئين ... لكن الأمر هو العكس. فإنه ما استطاع السبب إسقاط الدولة الأموية، تغلب بنو العباس على بني فاطمة واتسع للعباسيين خصمان كبيران الأمويون والعلويون . فأخذوا ينكلون بهم جميعا . فلما خلا خليفة عباسي من قتل هام علوي . ولما حضرت الوفاة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أوصى بالخلافة لأولاده إبراهيم المعروف بإبراهيم الإمام ثم أبي العباس عبد الله وأبي جعفر الملقب بالمنصور . فتولى أبو العباس الخلافة . ووضع بيده بعض أسسها ولكن أعداؤه . وجاء أبو جعفر المنصور فسار سيرة أخيه ، وأكمل الأسس ، وأتم تشريد الأعداء

وجاء بعده المهدي فصادف جماعة يبغون على الاسلام سماحته ويودون ارجاع الدولة الفارسية كما كانت ، وديانة الفرس المجوسية كما كانت . فقتلهم المهدي تحت ستار انهم زنادقة ، وعهد بالخلافة الى ابنه الهادي ثم الرشيد . . . فجاء الهادي يريد أن يخلع الرشيد ويحمل الناس على البيعة لابنه جعفر . وكان الهادي شرسا قويا جبارا . وكان الرشيد لينا صغيرا . فلما علم مراجعة ذلك مال الى اجابته . ولكن عارضه يحيى البرمكي وكان ولي أمره اذ ذاك ، ولما اشتد الهادي على يحيى البرمكي والرشيد ، نصح يحيى للرشيد بأن يسافر الى مكان بعيد ليختفي عن أعين الهادي فلا يذكر هذه المسألة الا لماما

على أريكة الخلافة



هرون الرشيد على اريكه الخلافه

تولية الرشيد

كان من حسن حظ الرشيد أن لم تطل خلافة الهادي فمات سريعا ومات فجأة، فلم تعمر الفتنة، وتبوأ الرشيد مكانه وجلس على العرش فنال حظوة عظمى، فلم يعرف عربي في الشرق كما عرف عن الرشيد ولذلك أسباب كثيرة، أولها تلك العلاقة التجارية والسياسية بين الرشيد وملوك أوربا في ذلك العهد، وثانيها ما صورته كتب الأدب والشعر عن مجالس الرشيد وثالثها القصص والحكايات التي رويت عنه ألف ليلة وليلة من صور رائعة جذابة، فهذه صورة له يتجسس بالليل مع جعفر البرمكي ومع خادمه مسرور في أزقة بغداد وهذه صورة أخرى يمزح فيها القضاة وهذه صورة ثالثة في المنادمة على الشراب والغناء، وهذه صورة رابعة ينصف فيها المظلوم ويحقق العدالة، وعلى الجملة فقد صورت ألف ليلة وليلة الرشيد تصويرا بديعا لطيفا كما صورت لنا أسواق بغداد وكيف تزخر بالسلع وكيف تتوارد عليها من كل مكان وحركة التجارة نشيطة مليئة

وتصور لنا مجالس الرشيد وما فيها من مدح وترف، إلى غير ذلك مما يعد دعاية واسعة للرشيد ...

الرشيد وألف ليلة

وهنا نتساءل لماذا كانت ألف ليلة وليلة دعاية للرشيد من دون غيره من كبار خلفاء بني أمية كعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك أو من كبار بني العباس كعبد الله

ابن محمد وابي جعفر المنصور ، وكلهم في الخلافة أعظم من الرشيد وافخم واعدل ...

فكرت في ذلك طويلا .. فاهتديت الى جواب قد يكون صحيحا وهو أن الف ليلة وليلة ترجمت في عصور مختلفة وزيد عليها في عصور مختلفة ، فكان اول ما ترجم عن الفارسية هذا القسم البغدادي في عصر الرشيد ، فسبقه ابن المقفع لظهور الكتاب في أيامه ، وابتداء لما حدث لعبد الله بن المقفع حين ترجم كليلة ودمنة ، وقد أوما ايماءة خفيفة الى صفة الخليفة والحكام وذلك بوصفه للملك العادل وما ينبغي أن يكون عليه وتعميمه على الملك الظالم وكيف يكون .. مما دعا الى قتله بتهمة الزندقة

وكانت ترجمة الف ليلة وليلة على كل حال مسايرة لترجمة كليلة ودمنة ، ترجمة من نوع خاص لا هي بالحرفية ولا هي بالمعنى فقط ولكن ترجموا المعاني مصبوغة بالصبغة الاسلامية من اعتقاد في القضاء والقدر ومن تقدير للحظ ونحو ذلك

فلما رأى المترجم ما حدث لابن المقفع اتقاه،وبالغ في المغالاة بالرشيد .. ليتقي القتل

وقد يكون هناك سبب آخر وهو أن الرشيد لما علم بترجمة الكتاب ، أفاض على المترجم من عطائه ، وفهم أن عنده خير دعاية له كما تفعل بعض الهيئات السياسية من

شراء بعض الجرائد بالمال . وربما يكون الصنفان جميعا صحيحين

وربما ترجم جزء آخر من ألف ليلة وليلة في عهد الخليفة العباسي المعتضد فدخل نصه . ووضعت عليه صفات عمر ابن الخطاب والرشيد

ثم القسم المؤلف في مصر فقد وقف موقفا آخر واصطبغ بصبغة أخرى ، ليست موضوع حديثنا هنا

على كل حال اشادت ألف ليلة وليلة بذكر هارون الرشيد لشدة عظمته في علمه وعدله ولهوه وغير ذلك

وكان من حسن حظ الرشيد رواج ألف ليلة وليلة رواجا عظيما في الغرب وإقبالهم على قصصها . عكس ما كان ينظر الشرقيون إليها قديما . فقد وصفها ابن النديم بأنها قصص تافهة . ولكن الغربيين رأوا فيها خير ما يمثل الحياة الاجتماعية ، فيها ترى من عقائد ، ومن جوار ، ومن مكر نساء ، ومن لعب شطرنج ، إلى غير ذلك . ورأوا أنها تمثل الشرق من جميع نواحيه ، فعنوا بها من نواح مختلفة .. فأولا من جهة نشر نصوص الكتاب التي عثروا عليها . وثانيا من جهة ترجمتها إلى لغات غربية مختلفة

وربما كان أول من ترجمها إلى الفرنسية الأديب الفرنسي « جالان » ، ثم ادوارد لين إلى الانجليزية ، ثم ليتمن بالألمانية . وقد راجت هذه الترجمات رواجا منقطع النظير . وكان في رواجها رواج للرشيد معها . فلما رآها المترجمون قد راجت

وقرأها [illegible] شغفوا بالرحلة الى [illegible] شباب
[illegible] لغة [illegible] ، ودعاهم ذلك الى تعلم اللغة العربية
[illegible] كتب [illegible] مساعدوه على اثر هذه الرحلات

[illegible] وعلى استغلال هذه الترجمة
[illegible] ووضع قصص احيانا للاطفال ، واحيانا
للكبار واحيانا [illegible] ، واحيانا غير [illegible] وهكذا ،
كان [illegible] هارون الرشيد عمل السحر ، مما لم تعمله
[illegible]

الخليفة العباسي

ولم يكن الخليفة العباسي حاكما مدنيا فحسب [illegible]
بل حاكما دينيا تحيط بهالة من ضروب التشريف والتوقير
والاحترام [illegible] الهادي تولى الرشيد كما تجري
[illegible] على سرير الملك ، و[illegible] الابهاء على
[illegible] كبار رجال الدولة ومن يسمون هذه اهل الحل
والعقد [illegible] ولا [illegible] الامراء [illegible] يتقدمون الى
[illegible] ويقرؤون [illegible] ويعقدون الايمان التي
[illegible] عليهم [illegible] ، وتابع بعضهم الوزراء واولادهم ،
[illegible]

وعندئذ [illegible] اخذ الخليفة والوزراء والاشراف
على شكل دائرة تحاشي العرش ، ووقف الحاجب بالباب
يأخذ البيعة من الناس ، ويكتب الى امراء الامصار ليأخذوا
البيعة من كبار الرجال في دوائرهم ، فلما تم ذلك [illegible]
[illegible] السلطة المدنية

والروحيه . وهي حالة لا نستطيع أن ندركها في عصرنا
اليوم

□

ثم عمد الرشيد أن سمى بغداد مدينة السلام تشبيها
بها بدار السلام ، وسمى قصر الخلافة بالحريم تلميحا الى
البيت الحرام . وخلع بعضا من أسماء الأنصار وسماهم
بالأنصار . وجعل بابا من أبواب بغداد قليل الارتفاع
لكي ينحني الداخل منه شبيها بالسجود احتراما لمحدثه
.. كما يفعل الداخل الى الكعبة . وسمى الخيزران أم الخلفاء
تشبيها بما سمى به الرسول عائشة أم المؤمنين

واستكتب العلماء في وضع الاحاديث التي تمجد بيت
بني العباس كالذي رواه الطبراني عن ابن عمر : كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والأنصار
وعلى بن أبي طالب عن يساره والعباس عن يمينه ،
فتلاحى العباس ورجل من الأنصار فأغلظ الانصاري للعباس .
فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس وبيد علي وقال
« سيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض جورا وظلما
وسيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض قسطا وعدلا .
فاذا رأيتم ذلك فعليكم بالفتى التميمي فانه يقبل من قبل
المشرق . وهو صاحب راية المهدى »
ويظهر أن واضع هذا الحديث ماكر رائد في المكر ، فانه
جعل روايته ذات وجهين ، حتى اذا غلب فريق ادعى أنه هو
المراد ، لأنه لم يعين المشار اليه في كل مرة فأخذه دعوة ى

العباسي وذووه بهم لأنهم أصحاب الروايات.

عرف من هذا ما رواه الحاكم عن مجاهد عن ابن عباس، قال: قال مجاهد: قال لي ابن عباس: «لو لم أسمع أنك من أهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث». قال: فقال مجاهد: «فإنه في ستر لا أذكره لمن تكره». قال: فقال ابن عباس: «منا أهل البيت أربعة: منا السفاح، ومنا المنذر، ومنا المنصور، ومنا المهدي».

قال: فقال مجاهد: «بيّن لي هؤلاء الأربعة». فقال ابن عباس: «أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه، وأما المنذر فإنه يعطي المال الكثير ولا يتعاظم في نفسه، ويمسك القليل من حقه. وأما المنصور فإنه يعطى النصر على عدوه ويرهب منه عدوه على مسيرة شهر. وأما المهدي فإنه الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وتأمن البهائم السباع، وتلقي الأرض أفلاذ كبدها». قال: قلت: «وما أفلاذ كبدها؟» قال: «أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ومنه إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر وقد خرج له مسلم. والحديث كما يظهر مصنوع حكى خبره كما يحكي الحديث الصحيح، فكلها أحاديث وضعت لخدمة البيت العباسي والإشاعة بين الناس أنه بيت مؤيد من الله مقدر على العباد، فلا معنى لمقاومته.

يحيى البرمكي

فلما تربع الرشيد على كرسي الخلافة الذي كان مرتقبا عليه إلى قبل أخوه الهادي وأبوه المهدي، كان أول ما فعل أن أسند

الوزارة الى يحيى البرمكي اعترافا بخدمته .. فقد كان مربيا له في صغره، وكان المدافع عن ولايته للعهد في صباه، وكان الرشيد ينادي يحيى يا أبت، دلالة على حبه والوفاء له. وكان يستشيره في جميع الأمور ما صغر منها وما كبر. ومنحه سلطة مطلقة لتسيير أمور الدولة كما يرى وكانت وزارته وزارة تفويض. والوزارة في الدولة الاسلامية تنقسم الى قسمين وزارة تفويض ووزارة تنفيذ. فوزير التفويض يستطيع أن يقضي ما يشاء من غير أن يرجع الى الخليفة، وله الحق أن يولي من يشاء ويعزل من يشاء. وأما وزير التنفيذ فليس له أن يقضي أمرا ابتداء من عند نفسه انما يفعل ما يأمر به الخليفة. وكان ليحيى هذا أبناء أربعة الفضل وجعفر وموسى ومحمد .. وكلهم على جانب عظيم من الحنكة السياسية، وتولوا أعمالا عظيمة في الدولة وأشهرهم منهم الفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى

اشتهر الفضل بالكرم الذي لا حد له، وكان في ذلك يفوق كل أهل بيته، واشتهر جعفر بقربه الشديد من الرشيد وبالكرم دون كرم الفضل وبالبلاغة فوق بلاغة الفضل

وكان الخليفة في هذا العصر حاكما مستبدا برأيه يهيمن على كل شئون الدولة وفي يده جميع السلطات ويشرف على الرسائل الرسمية، وعلى بعض أمراء الأمصار وعماله ووزيره ينوب عنه في ذلك. وكانت كل الأعمال التي يتولاها الوزير يتولاها اما برأيه أو منفردا عنه. ولم تكن شئون الدولة مقسمة الى وزارات لكل وزارة اختصاص. فان بغداد

لم تعرف عندنا نظام من كل الوزير وزير كل شيء ، وزيرا للمال ، ووزيرا للشئون الاجتماعية ، ووزيرا للأشغال ، إلى غير ذلك . كما كان الخليفة كل شيء . وإنما عرف نظام التخصيص وإسناد كل طائفة من الأعمال إلى وزير وبتعدد الوزراء ، الأندلس لا المشرق .. وهذا ما جعل الوزير في المشرق واسع الاختصاص يحمل كل المسئوليات

▬

وبجانب الوزير والخليفة كان هناك مجلس استشاري ، يتألف من الوزير وبعض أعيان المملكة ، وهذا المجلس يستشار في المسائل العامة الكبيرة ، كإيرادات الدولة ومصروفاتها وتعيين كبار الموظفين وغيرهم ، ومن الأسف أن ليس لدينا تفصيل كثير عن عدد أعضاء هذا المجلس ، ولكنا نعلم أنه مجلس استشاري ، للخليفة والوزير أن يأخذ برأيه أو يخالفه ، لا كما كان نظام الشورى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ولا كما كان مجلس الشورى في الأندلس إذ كان له من السلطان ما يستطيع به أن يقضي على الخليفة ويبرمه بحكمه

وبجانب ذلك كان صاحب البريد ، وكان ذا شأن عظيم في الدولة ، فهو بمثابة عملة تجمع الأخبار من كل قطر وإبلاغها الخليفة ، فيتجسس بواسطتهم على من يهمهم الخليفة ، وإذا كانت هنالك مؤامرة أو دسيسة أو خطر على الدولة أخبر به الخليفة سريعا ، وكانت إدارة البريد منظمة تنظيما دقيقا ، وإذا استطاع الخليفة أن يعرف كل

انسان فلا يصح له أن يحجب صاحب البريد .. لأن تأخر ساعة واحدة ليلا أو نهارا قد يجعل الأمر الخطير مستفحلا، ويجعل ما كان يعالج عنده باليسير لا يعالج عليه بالكثير وكان من شأن صاحب البريد التجسس في الداخل وفي الخارج جميعا ، ومن المتجسسين رجال ونساء ، ومنهم تجار متجولون وغير تجار ، مما يشبه ما عليه الأمم الغربية في هذا العصر

توزيع الأمراء

وهنـــاك أمير على كل قطر ينوب عن الخليفة يفرض الضرائب ، ويحصل الأموال ويصرف مما يحصـــل على الاصلاحات العـــامة وما بقي منها يرسله الى الخليفة في بغداد . وقد بلغ ما دخل خزانة الخليفة كل سنة في عهد الرشيد حوالي ٤١١ مليون دينار . وكانت الامارات في عهد الرشيد تتألف من افريقية وأذربيجان . وأرمينيا . ومكة والمدينـــة واليمامة واليمن ، والكوفة والبصرة والبحرين، والسواد ، وعمان ، وعراق العجم ، وخراسان، وما وراء النهر ، والسجستان ، والسند ، والأهواز وجنوبي فارس ، والموصل ، والشام ومصر . وعلى كل امارة من هذه الامارات أمير يتولى أمورها ، وهو مسئول عن شئونها المادية والروحيـــة أمام الخليفة . واذا حصلت ثورة اخبر الخليفة ، وكان عليه أن يخمدها

ويجانب ذلك أيضا كان أستـــاذ الدار – أو كما يقال مختصرا الاستاذ – أو كما نسمي اليوم ناظر القصر . وهو

يقوم بكل شئون من شئون الدار ومراعاة زواره وما يأمر به
الخليفة من تنظيم حفلات كما يقوم على طعام الخليفة وشرابه
وتنظيم حاشيته وما يتصل بها الى غير ذلك .

ب - كان ديوان الرسائل يتولى تدوين توقيعات الخليفة
واعداد مراسيمه وما يصدر عن الخليفة وما يرد اليه

وكان يلحق بهذا شرطة يحملون عصا عسكرية خاصة .

ثم كان المحتسب الذي يشرف على كثير من الشئون
الاجتماعية فيراقب السكر والمطففين في الكيل والميزان .
ومن احترف حرفة ليس اهلاً لها ، ويستوثق من صلاحية
[illegible] [illegible] وعدم [illegible] ونحو ذلك

أجهزة الدولة

فى عصر هرون الرشيد



احيط الرشيد بابهة الدولة ومباهجها مما احدثه الدولة العباسية عن الفرس . ذلك ان مجالس الخلفاء الراشدين كانت ساذجة بسيطة في المسجد او في المنزل يقعدون على حصير او جلد ، ويتقون بعباءة او نحوها ولا حرس ولا حجاب . واذا مشوا قائدا مشى الخليفة في رداءه بلا حرس ولا طبول . ولم تكن هناك حجبة ولا حجاب . فمن كان من اراد الاستئذان على الخليفة يقف على الباب ويقول : "السلام عليكم .. ادخل ؟ " يكررها ثلاثا ، فان قيل له " ادخل " دخل ، وان لم يجب لم يدخل . ثم اضطر الخلفاء الراشدون انفسهم للحجاب للازدحام . فلما فتحوا الفتوح من امصار كان يحكمها الرومانيون واقطار كان يحكمها الفرس . قلدهم الامراء والخلفاء في مظاهر الابهة واتخاذ الحجاب

وقد بدا ذلك معاوية بن ابي سفيان في دمشق . واشاروا عليه بضروب من الفخفخة . فرتبوا الناس مراتب في الدخول على الخليفة او الامير . تؤذن اولا لأشراف نسبا فاذا تساووا في النسب قدموا اكبرهم سنا . فاذا تساووا في السن قدموا اكثرهم دينا . وقلد الامويون ملوك الروم . وقلد العباسيون اكاسرة الفرس في مجالسهم ومظاهر ابهتهم

ابهة واستبداد

فمما جلس الرشيد كانوا ينصبون له في الصحن الكبيرة في القصر سريرا وكراسي ، ويفرشون به الطنافس والمقاعد والوسائد تحتوي طيبين ، وكانت الستور تقام لتحجب الخليفة اذا اراد ، وترفع اذا اراد . ثم عينوا الحجاب على الابواب

سمعوا الدخول على الخليفة الا باذن . فاذا اذن الخليفة او الامير لاحد تقدم بالسلام . وربما اضافوا اليها السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . وربما قبلوا يد الخليفة عند استخدامه اذا احس الخادم رغبة من الخليفة في ذلك . فلما زادوا عظمة ترفعوا عن مد يدهم للداخلين

وفي عهد العباسيين اخترعت بدعة تقبيل اليد او الكم . فان استخدموا احدا منعوه من تقبيل يدهم او كمهم . ثم يجلسون في مجلس الخليفة حسب مرتبتهم . يتولى اجلاسهم في مجالسهم الحاجب . وهذه تختلف باختلاف الدول . . لكن الامويين ؟ يقدمون بني امية فيجلسون الامويين اقرب مجلس يجلسه . اما العباسيون فكانوا يجلسون بني هاشم قرب مجلس ابيهم . لانهم انفسهم من بني هاشم . واذا اجلسوا بني هاشم اجلسوهم على الكراسي . واقعدوا بني امية عندهم على الوسائد . . وقلما كان يكون ذلك . وقد منع الخلفاء العباسيون الكلام ومخاطبة الزائرين بعضهم لبعض في مجلس الخليفة . ولا ينهض احد للداخل الا اذا نهض الخليفة . وهم لا يبدأون الخليفة بكلام الا ان يبدأ . فاذا لم يكلمه ظل ساكتا

ولم يشذ عن ذلك الا المأمون لرغبته في سماع الجدل والمناظرة . وغلبة ذلك عليه اكثر مما يميل الى التقاليد المرعية . وربما قلده فيه غيره من بعض الخلفاء الذين اتوا بعده ؛ ومنعوا ان يؤمر احد في حضرة الخليفة بامر ليكون هو الامر

وحده . ووصلوا الى الداخل أن يسعى بكل جوارحه الى الخليفة ، ويتجه كل انتباهه الى ايماءات الخليفة واشاراته . ومنعوا أن يعزى الخليفة وأن يسأل كيف أصبح وكيف أمسى . وانما يجوز ذلك لبطانته الخاصة ، وللعراق خدمت . وكان لكل خليفة كلمة ، أسرها عونه عند الاذن من حضرته بالانصراف . فكان السفاح مثلا يلقي المروحة من يده . وكان المأمون يعقد الاصبع أو يمضي تفهمه . وكان من انصرف بوجهه وجهه نحو الخليفة حتى يصل الى أبواب ظهره ثم ينصرف . وكان على باب قصر الخلد في عهد الرشيد مكان يجتمع فيه الوفود من شعراء ومغنين ومضحكين ، لعله يخطر ببال الخليفة طلب نوع منهم ، فيكون له الحظوة . وشجع على ذلك كثرة ما كان يعطيه للوافدين ، أو مما عرضه تجار الجاريات والمتع ، وكثيرا ما يصطدم عطاءاته برغبة الوزير ، كالذي حكى أنه أمر مرة بشراء جارية بمئة ألف من الدراهم ، فاستكثرها يحيى البرمكي . فأحضر المبلغ وكومه في مكان يطلع عليه الرشيد في ذهابه الى الوضوء وجيئته . فلما رأى الرشيد المبلغ استكثره . ومع ذلك صمم على تنفيذ ارادته . واشتد يحيى البرمكي في سره حتى قالوا ان هذه الحادثة أيضا من أسباب نكبتهم . . .

ولقد كان المظهر مظهر أبهة وفخفخة واستبداد وتقاليد دقيقة ، في الجلوس والحديث والانصراف مما ورثوه عن الاكاسرة من قبل ولا يعرفها الاسلام . وهذه كلها خلعت

فوق الناس وأماتت روحهم . وحسبتهم كأنهم أحجار شطرنج مفقودة الإرادة . كما أن هذه السلطة أو اتساعها مكنت للرشيد أن يتصرف في الناس تصرف الحاكم المستبد المطلق الحرية . ولولا ذلك ما أمكنه أن يقبض مثلا من الإقبال على البرامكة ، فتكون لهم السلطة المطلقة .. ثم ينقلب عليهم وينكل بهم ويصادر أموالهم ومن يلوذ بهم

فالنتيجة المنطقية أن ذلك كان نظاما مستبدا يناسب بعضه بعضا . ففي حكم الرشيد مثلا . استبداد لا إلى حد أحيانا ، وسماحة لا إلى حد . ولا ندري من نفسية الخليفة ذاهب هو إلى الغرم أم راجع لآلاف الدنانير . إذ لا قوانين ولا أنظمة ولا دفع لهذه الشئون في نفسه ولا عمل بقانون شرعي أو قانون وضعي . ترى الناس كلهم معلقة بهوى الخليفة .. قد يأمر بالقتل فيه ، وقد يأمر بالشفاعة فيه . وكل الأمور من معاملة الولاة للرعية والرعية للولاة ، وعلاقات الناس بعضهم ببعض سائبة . وقديما قالوا الناس على دين ملوكهم

ومع هذا فيجب أن ننظر للرشيد على أنه حاكم شرقي مستبد فيه كل مزايا الحاكم المستبد من إعطاء من شاء وإسعاد من شاء ، وسرعة التنفيذ فيما يرى . والخضوع والطاعة من غير نقد . وفيه رزايا الحاكم المستبد من سفك دماء من شاء وسلب الناس حقوقهم وحرياتهم . وخضوع الناس للهوى الذي لا يعرف أين يتجه . لا لقانون معروف ونحو ذلك

ميزانية الدولة

وقد عثر على ميزانية للدولة العباسية من إيرادات

ونفقات . تلك ميزانيات في هذا العهد . وان كانت الميزانية التى عثر عليها من ايام المعتضد بعد عهد الرشيد بقليل . نذكر بعضها . فمنها :

١٠٠٠ دينار في اليوم ارزاق اصحاب النوبة من نواشى ومماليك

١٥٠٠ دينار في اليوم ارزاق الفرسان

٦٠٠ " " " ارزاق الحجارية من الخدم

٢٣٣ " " " نفقات المطبخ الخاصة والعامة

٤ " " " ارزاق السقايين بالقرب في القصر

١٠٠ " " " ارزاق الحشم من المستخدمين لخزائن الكسوة والفرش والرياش والطرس

٤٤ دينارا في اليوم ارزاق الحشم وكبار الملهين ومن يجرى مجراهم

٤٠٠ دينار في اليوم ثمن علوفة للخيول في الاصطبلات

٢٠ " " " ارزاق مشايخ بنى هاشم والخطباء في المسجد

٣٣ دينار في اليوم ارزاق لبنى هاشم من العباسيين والطالبيين

٤ دينار في اليوم ثمن النفط للمصابيح والمشاعل ومن يخدمها

٥٠ دينار في اليوم نفقات السجون

١٥ " " " نفقات البيمارستانات الخ

وقد جمعت النفقات كلها فكانت جملتها ٦٩٧٤ دينارا في اليوم . اما الدخل فكان من الصدقة والزكاة والجزية والخراج والمكوس واعشار السفن واخماس المعادن والمراصد

الخمرية وصلات ضرب النقود ورواتب الصناعة الخ ...
وكان يعرض حسابه على الخليفة وعهد علي عهد في الموازنة بين
الدخل والخرج . اما اذا احسنت الميزانية فقد احاطت شئون
الدولة . ويكون ذلك من قلة الدخل مع كثرة الخرج . ومن
كثرة الدخل مع قلة الخرج وتسمح لمصالح

وكانت مراسيم التعيين في غاية من الروعة والابهة . فكان
من سيولى يأتي الى القصر بعد ان تسلمه الكتاب الرسمي ،
تحمله اليه امين من امراء الدولة وعند خروجه الى باب
الخليفة يقدمه الحاجب اليه . فيحدث اليه قليلا ثم يذهب
اليه فيسلا ثم يذهب الى حجرة اخرى . فيلبس لباس
التشريف ثم يعود فيقبل يد الخليفة ، وينصرف الى الديوان
مصحوبا موكبا مهيبا . ويسير بين يديه كبار الموظفين واخص
والامراء بموضع الملك . وعندما يصل الى ديوانه يقرأ
عليهم مرسوم التعيين

مجلس الخليفة

وكان مجلس الخليفة ــ ويسمى مجلس العزيز ــ يقابل
الباب العالي في الدولة العثمانية . وكان من اهم الدواوين
ديوان الخراج . وديوان الضياع المقطعة او كما نسميه
اليوم ديوان الخاصة الملكية . وديوان الزمام وهو ما يقابل
اليوم مراقبة الحسابات . وديوان الجند . وديوان الموالي
والعبيد . وديوان البريد . وديوان زمام النفقات . وديوان
التوقيع . وديوان الاحداث والشرطة . وديوان العطاء .

وديوان المظالم وهو ديوان أعلى من المناصب القضائية لأنه كان ينظر في المظالم التي يتهم فيها الموظفون أو الخلفاء أو الأمراء أو أولاد ولي العهد ، و أولاد الخلفاء أو نحو ذلك ، ممن لا يستطيع القاضي العادي أن ينفذ فيهم كلمته . فكان هذا الديوان يسمع الشكاوى من هؤلاء الخاصة . ويستطيع بواسطة رئاسته الخليفة أن ينفذ كلمته

وقد كان الرشيد — ومن بعده المأمون — يرأسان هذه المجالس . وكانوا يعينون يوما خاصا للنظر في أمور المتظلمين ، ويقولون ان أول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان في الدولة الأموية ، ثم عمر بن عبد العزيز . [illegible] ويقول البعض انه استمر في الدولة العباسية . برئاسة المهدى . ثم الهادى ، ثم الرشيد ثم المأمون

واستمر العمل به في زمن المهتدي بالله ، ثم عهد الخلفاء النظر في المظالم الى قاضى القضاة ، أو بعض عظماء الدولة . وكان يعرف أن المأمون كان يجلس للمظالم يوم الأحد من كل أسبوع . ولسنا نعلم في أي يوم كان يجلس الرشيد بنفسه للقضاء في هذه المظالم

دار الضرب

وكانت هناك دار تسمى دار الضرب ، تضرب فيها النقود .. انشئت في بغداد ، والقاهرة ، ودمشق ، والبصرة . وكان على دور الضرب هذه ضريبة على ما يضرب فيها من النقود ، مقدارها درهم عن كل مائة درهم ، وربما اختلفت الضريبة باختلاف المدن . ويجتمع من ذلك دخل كبير للدولة . أما مقدار ما كان يضرب فلم نعرفه بالضبط . غير انى رأيت

بعض المؤرخين يقول ان دار الضرب في الاندلس على عهد
بني مروان ، كانت تضرب مائتي الف دينار في السنة

وكانت صنعة الضرب هذه صناعة ساذجة بدائية ..
كانت من حديد تنقش فيه الكتابة التي يراد ضربها على
النقود مقلوبة . يسبكون الذهب والفضة بمقدار ،
ويصبونه في هذه القوالب . ويطرقونها بمطرقة ثقيلة ،
ويسمون هذه الحديدة « السكة » . وهناك عمال كثيرون في
هذه الدار ، من وزان وضارب ونحو ذلك

القضاء

وللقضاء دواوين خاصة به بعضها اداري وبعضها قضائي
كديوان القضاء . وكان على حسب تقسيم من الاهمية .
وكانت كل قضية لعرض استئنافها توكل الى رؤساء دوائرهم .
ما يسمون الآن بعض سنهم القضاء . وكان في كل مدينة
قاض معه قضاة في النواحي التابعة للمدينة . وكان قاضي
بغداد يسمى قاضي القضاة ، وهو في الواقع رئيس قضاة
المملكة الاسلامية كلها . اما القضايا الخاصة بين الناس ، فيعهد
الى صاحب ديوان المظالم كما ذكرنا . وحينا يرأس الجلسة
الخليفة نفسه ، ويحوط به في عادته احد كبار الموظفين ،
واعضاؤها قاضي القضاة ، والحجب ، وكبار رؤساء
الدواوين ، وكان من العادة المتبعة الا تقبل شهادة كل
شاهد ، وانما يختار جماعة من حسني السيرة او على الاقل
مستوري الحالة يسمون عادة بالعدول ، ولا تقبل الشهادة
الا منهم ، فمن اراد ان يثبت حادثة حدثت يجري ان يؤدي

امامهم ؛ وكانت على العموم محاكم بدائية ثم تطورت تطورا تاما الا فى عهد نور الدين محمود زنكى

الزراعة والصناعة

وعنى فى عهد الخلفاء العباسيين بالزراعة وخاصة فى الولاية التى بين دجلة والفرات . فامتدت شبكة من القنوات فى اتساع لا تزال آثارها المطمورة باقية الى اليوم . واتسع لكثيرة تفجر منها السهل الكبير . هذا القسم الذى بين دجلة والفرات هو الذى سمى سواد العراق لكثرة خصبه . وعنوا عناية كبيرة بعض المواد المعدنية واستخراج الحديد والرصاص والفضة من فارس وخراسان . كما استخرجوا الزمرد من تبريز . والملح والكبريت من شمالى فارس . والنفط من كورجيا ، ومن ثم انشئوا ادارة للمناجم وولوا عليها مديرين اكفاء

كما كانوا شغوفين بالصناعات كصنع الفخار والزجاج ، وشيدت لهم مصانع فى بغداد وسامراء ، واشتهرت مصر وسمرقند وبغداد بصنع الورق . واتى الى بغداد طائفة من مهرة هذه الصناعة واسست مصانع للتطريز ، وتفوقوا فى صناعة الحرير والاطلس والانسجة الحريرية والسجاجيد الفاخرة . وقد اشتهرت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها . واشتهرت صناعة العباءات المنسوجة من حرير الخز . وعلى الجملة اشتهرت كل مدينة بصناعة . وعلقت المصابيح البلورية فى المساجد ومساكن الاغنياء . وكانت مزدانة بالنقوش الجميلة والآيات القرآنية او الاحاديث النبوية . وكانت تصنع هذه المصابيح على اشكال مختلفة وتباع اما للاستعمال أو الزينة ؛

وقد عنيت عنيه تربيه ابى ايوب . ويصف بشار
الاعمى كاسا عليها صورة كسرى مطلوبه . ورسم خط
للخمر اشرف ورسم خط آخر للماء الممزوج به

ازدهار التجاره

ازدهرت التجارة في عهد هرون الرشيد . وكانت اول
[illegible] في ايدي اليهود والنصارى . ثم انتقلت الى المسلمين ، وقد
ازدهرت [illegible] واتسعت مناحيها حتى وصلت الى الصين .
وكانوا يتجرون في الحرير والاحجار الكريمة ، والاقمشة
المزخرفة والزجاج الملون ونحو ذلك

وكانوا ينقلون بضائعهم على قوافل متعددة [illegible] كل
قافلة ما بعدها كمراحل البريد

وقد فكر الرشيد في حفر قناة السويس قبل ديلسبس
[illegible] وامتدت تجارتهم شرقا الى اندونيسيا . وغربا
الى مراكش واسبانيا . ومما يدل على ازدهار التجارة في عهد
الرشيد وجود كثرة الذهب لدى كل تاجر من الاقطار
الاسلامية

الجيش

واشتهرت الدولة العباسية بمهندسين شيدوا العمارات
الضخمة ، وبعضهم تخصص في بناء الحصون وبعضهم الف الكتب
في الهندسة الحربية [illegible] وطرق الاستيلاء على الحصون
وتشييد القلاع والعروش والخنادق وصفات الخيول وانواع
الاسلحة . وكان النظام السائد هو نظام الاقطاع وهو جمع

قطيعة ، وسميت أماكن كثيرة بقطيعة فلان . وكان مرتب الجندي مائة درهم شهريا . وزيد بعد ذلك في العصر العباسي — وهذا بخلاف الراجل أما الفارس فكان مرتبه ضعف ذلك . عدا ما منحه الخليفة للجنود في المناسبات المختلفة

واشتهر نظام في الجيش يسمى نظام الموالي . فكان لكل خليفة جيش يسمى باسمه . وكان من مقتضى هذا النظام تعلق الجنود بمولاهم والاعتزاز به والتحمس له

وكان هناك ديوان يسمى ديوان العرض ويختلف عن ديوان الجند ، من وظيفته استعراض الجند ومعرفة كفايتهم . ولذلك نجد أناسا كثيرين يعرفون بالعارض . وكان لكل مرفق من مرافق الدولة مفتش يسمى بالمشرف . وكان مفتش الري والزراعة يسمى مفتش الأقرحة . ومن وظيفة هؤلاء المفتشين التفتيش ، كل في دائرة اختصاصه ورفع التقارير عنها إلى الخليفة



النظام الاجتماعى
فى عهد هرون الرشيد



انقلب النظام الاجتماعي الأموي في العصر العباسي رأساً على عقب . فبعد أن كانت الدولة الأموية قد قامت على العنصر العربي والدم العربي ، أصبحت الدولة العباسية تقيم أساسها على الدم الفارسي ومساعدة الفارسية وفي ذلك قال الشاعر :

ان اولاد السرارى   كثروا يا رب فينا
رب أدخلني بلاداً   لا أرى فيها هجينا

وكان الخلاف بين الأمس واليوم في الحقيقة خلافاً بين عنصرين . عنصر العرب الذي أصبح شريفه من ناحية وعنصر الفرس وعلى رأسه ظهر الخراسانيين . ومن هنا اختلف العنصران فعلاً تصريحاً . وراح العرب يتفاخرون والفرس بالعرب . ونشأت حركة عنيفة تسمى حركة الشعوبية تنادي بمساواة الأجناس . وساعد على ذلك كثرة السراري والإماء اللاتي كن يملأن البيوت . فكان كل رجل يتزوج بحرة وحرتين الى أربع ويحيط نفسه بمن يشاء من الجواري بملك اليمين . وهؤلاء الجواري كن أكثر حرية بفضل عرضهن للبيع والشراء والانتقال من يد الى يد . عكس الحرائر وذلك عكس المفروض . فقد كان المفروض أن تكون الحرائر أكثر حرية . كما ساعد على ذلك أيضاً كثرة عدد من الموالي وتفوقهم عن سادة العرب عليهم

تعدد الزوجات

ولكن مع الأسف كان تعدد الزوجات وكثرة الجواري

سببا في انحلال العرب . فقد كان هذا النظام محمودا يوم
كان مرتبطا بالجهاد حتى لا يكثر النساء دون الرجال .
واقتضى ذلك أحيانا حتى تعدد من نساء رجل واحد . ولكن
لما قعد الجند وبعض عن الحرب أرى وطء السريع كما هو
نتج عن ذلك انحلال الاسر

يقتضي أن البيت الواحد اذا كان فيه حرائر متعددات
وملك يمين متعددات ، كثر الخلاف بين الحرائر بعضهن
وبعض أو بين الحرائر والاماء . وبين الاولاد لتعدد امهاتهم
خصوصا اذا كان من شيمة الرجال تفضيل بعضهن على بعض ،
أو لجمالهن أو أخلاقهن أو لغير ذلك . واذا تفضل بعضهن
دب الحقد في القلوب والنفوس وانتشرت الشحناء والدسائس
والمؤامرات

... الجمعة بعض البيت ، وقع بين الاخوة من امهات
مختلفة في العدد أشد أنواع العداء . وفي التاريخ حوادث
كثيرة من هذا القبيل كالذي حدث بين الامين والمأمون ،
فالامين امه حرة عربية والمأمون امه جارية فارسية . ولعل
ابن خلدون أحد من ... لشرف . ولكن لم يكن الامر
حظ كل المسلمين ولا اغلبهم .. انما هو حظ الخلفاء
والامراء وكبار التجار ونحوهم . اما سائر الشعب ففقراء

يضاف الى ذلك أن الرجال — وقد قعدوا عن الجهاد — اتسع
وقتهم ، فتفرغوا للشهوات . والافراط في الشهوات يضعف
همته ويقصر العمر . ولذلك كان متوسط عمر الخلفاء

يضمر بالنسبة من عداهم . وكذلك اذا فضل الرجل احدى زوجاته فضل أولادها أيضا . ويكره الآخرون كما في قصة يوسف واخوته

واذا شعر الابن بانه ابن جارية بيعت في الأسواق . كان عنده مركب النقص بالنسبة لولد الحرة .. كالذي كان بين الأمين والمأمون . وكلما كثر الخلفاء على وأثرى كان الجواري عنده كثيرات العدد . وكان النزاع في النسب شديدا وفسد الاولاد من رؤسهم أمام أعينهم عددا كثيرا من الشبان أحرارا في العصر الذي يعيشون فيه

وكان الغرام . ومسائل الحب اتجهت الى غير ذلك كالذي يحدثنا به ابن حزم في كتابه طوق الحمامة . ولولا تمسك الله وتمسك الاسلام عليه . لانهارت أخلاقه كما انهارت أخلاق كثير من الناس . وكما حكي أن المأمون كان يغازل جارية بعينه وهي تصب الماء على يد أبيه . فلاحظ ذلك الرشيد واستنكر فعله . واذا كانت الامة مؤلفة من أسر متعددة متدهورة فيها تنحل بانحلال هذه الاسر

وشيء آخر هام وهو أن البيت اذا فسدت أخلاقه . بما فيه من تعصب بعض على بعض وحسد وغيرة . ومنافسة وعداء بين الأولاد وعداء بين الامهات . أصبح هؤلاء الأمهات غير قادرات على تربية الأولاد تربية صحيحة . وخرجوا الى الامة ضعاف العقول ضعاف الاخلاق كثيري الدسائس والمؤامرات فيصبحن أشبه . والقارئ لكتاب الاغاني عن بيت

[illegible] الرومي . يقول الشاعر فيه :

[illegible] محزون [illegible] وبه ابن رومي
[illegible] فعليها [illegible] وسماع ذي [illegible]
[illegible] بعد رائي وفي [illegible]
[illegible] قد [illegible] من اخوى [illegible]
[illegible] عن . [illegible] الرادين
لوشئت اعطيته مالا على [illegible] [illegible]
[illegible] الاور [illegible] من [illegible]
[illegible] لادليل [illegible] سوى [illegible]
[illegible] [illegible]

ولما حج ابن الرومي وحج جواريه معه خرج اهل بغداد عليه وعلى جواريه وقال قائلهم :

[illegible] سرور
[illegible] من روح المحسنين

السفور والحجاب

والقارئ لكتاب الأغاني . يرى الحجاب في ذلك العهد لم يكن به من يذكر . [illegible] ويجالسهن ويسمر معهن كما [illegible] ورشده . بل قد [illegible] الخوف [illegible] الوسط . وبكثرة الجواري وشيوع [illegible] وحدث [illegible] الغناء . وكان الفتيان يغشون هذه الأماكن ، وانت تقرأ وصفها وذا هي أشبه بالكباريهات في هذا العصر . واشتهرت المرأة كما تشهد كتب ألف ليلة وليلة بالمكر والدسيسة

وتدبير المؤامرات ، حتى شاع في هذا الوقت : دفن البنات من المكرمات »

وكانت المرأة وخصوصا الحرة تحمد العرب والحب كله لكثرة فرارها . ومع هذا فقد ظلت المرأة مستورة . ولما دخل الحجاب على البيت. تقيدا بعرس بالتدريج . فقد في عهد الوليد الثاني الأموي لأن أخلاقه وضعفه و ستهتاره جعل الناس يحافظون من الاعتداء عليهن ، فاستتبت الأسوار في القصور والحراس لضمان حماية الحرائر

ولكن المرأة على الرغم من ذلك كانت تتمتع بقسط كبير من الحرية والسفور . وكان الرجال ينتسبون الى أسماء ذي سلمى وأبي ليلى وكانوا في الحروب يذكرون نساءهم وحبيباتهم وكن الفتيات المعجبات يحمسن الرجال ويشجعنهم ويستقبلن الأضياف كالذي حكي في كتاب « أعلام النساء » أن رجلا حج فلما عاد عطش في الطريق فرأى خباء في ناحية منه فدنا منه فناداه . فقالت : « من ؟ » . فقالت ربة البيت : « نعم » فقلت : « وادخل » أ فعلت أخت . قال : « فدخلت فإذا جارية أحسن من سمع . فجلست أحدثها وكل الدر ينثر من فيها . فبينما أنا كذلك إذ دخلت عجوز مؤتزرة بعباءة مشتملة بخرقي . فقالت : « يا عبد الله ما جلوسك ها هنا عند هذا الغزال النجدي الذي لا تأمن ختله ولا ترجو نواله » .. فقالت لها الجارية : « أي جدة . دعيه يتعلل » فكنت الجرد ان قمر ويتحدث

. نصف وسعفه كالذي يقول الشريف الرضي

عقائل من ذوائب مقنعه وحر   وصائب من دون ابرسب ونصب

ثم كثرت الجواري وكثر التخنث ، فازداد الحجاب على الحرائر حتى كثف واتسع لا يسمح فيه الا بعين تبصر الطريق . وكان لبس المرأة عصابة على الراس اخترعته علية بنت المهدي حتى تخفي اثر الوسم . له اثار في تحسينه وفن ترصيع بالجوهر بمعصمه . وكان النساء يتحلين بالخلاخيل والاساور والاقراط والخواتم . والرجل يلبس قلنسوة قد اخترعت للمنصور ، ثم لبس الجسم سروال وقميص وقفطان ، فوقه عباءة . والفقهاء كانوا يلبسون عمامة على الراس وطيلسان . وقد اخترع قاضي الامام ابو يوسف وجعله لبس القضاة

الجمال

وكان الجمال في نظرهم على ما يظهر هو استدارة الوجه مع حمرته . وشاع في ايامهم كلمة « الحسن احمر » ويريد احد حسب الكل منه . ويستحسنون بقعته عسر في صحن . ويحبون من العين ما كانت واسعة كعيون المها مكسرة الجفون مكحلة بالكحل الطبيعي لا الصناعي . وشبهوا الاسنان باللؤلؤ او البرد . والنهدين بالرمان . والخصر بالقضيب . والردف بالكثيب . والقد بالخيزران . وهم يعنون في بيوتهم بديوان يعرفون به . وشيب جدرانه بالسجاجيد الاعجمية وصف حوله الكراسي . وخرجت الكراسي ذات المساند ويسمونها الكراسي المجنحة . وقد فرشت ارضية الغرفة بالطنافس

والعراريج يزيغ الجالس عنها . والأصص في بيوت الأغنياء قد صنعت من الفضة وصففت الموائد من الخشب المطعم بالآبنوس واللؤلؤ وأنواع الصدف كالذي نراه في مصنوعات القاهرة ودمشق . وطعامهم السكباج وهو مرق يصنع من اللحم والخل والماء أو من الفراخ ونحوها . والفالوذج وقد يسر أبو حنيفة صاحبه لما يوسف بأنه سيأكل الفالوذج بدهن الفستق

مظاهر الترف

ومن بدعهم أنهم لترفهم كانوا يكبون الدجاج الجوز واللوز ويسمونه الجلب . ويتفننون في الأطعمة وقد وصف ابن الرومي وصفاً بديعاً مائدة متعددة الألوان فقال

جاءوا بعربي (١) لهم ملتوي — قد بات يسقى خاثر السمون
مصبوغ أكرم ذي غضون — قد حشيت بالسكر المطحون
واللوز ما شئت من ملون — من بزر القثاء والسمحين
ومن شرائح ومن تردين — ومن هلام ومصوص جون (٢)
ومن أرز فائق سمين — ومن دجاج فيه بالصحين
والشحم في الظهور والبطون — واسقوا ذلك بالخمور ن

وقال بعضهم : « ذهبت إلى بيت أحد الفقهاء » فحيته . فأدخلني بساطاً فيه فرش مصفوف . ثم دعا بالمائدة عليها خبز

(١) العربي خبز حواشيه مصبوغة في وسطه شيء من ... سمنا وسكرا ، وهو ما نسميه اليوم بالفطير

(٢) الشرائح أطراف اللحم تشوى على الجمر ، والتردين نوع من أطعمة الأكراد ، والهلام طعام من لحم عجل ، والمصوص لحم ينقع في الخل بعد نضجه ، والجون المائلة إلى السواد

وخبز وملح . وجدي مشوي . فأكلت منه . ثم دعا بسمك مشوي فأصبت منه حتى اكتفيت . ثم دعا بحلواء فأصبت منها وعسلا نديا وجوزا وفاكهة وريحان وانواع من الاسودة . ودعا آخر من ... لك منه فاخرت وشربت .

وفي وصف مجلس للشراب يقول الشاعر :

اسقني واسق خليلي	في مدى سمر الغاوس
لونها اصفر صاف	وهي كالمسك الفتيل
في لسان المرء منها	مثل طعم الزنجبيل
رحت سطح منها	ساطعا من راس ميل
من يسر منبت ملأنا	بئس منهاج السبيل
فمتى ما نال حمصا	تركته كالقتيل
ليس يدري حين ذاكم	ما دبير من قبيل
ان سمعي من كلام الا	ثمى فيها الثقيل
لشديد الوقر اني	غير مطواع ذليل
... دعه وارح أخرى	من رحيق السلسبيل
... لسوم وسقي	في غد نعت الطلول

وكانت المشروبات في الصيف تبرد بالثلج او بخيش مبلل بماء تنقله من يسنده ويرطبه لتكون منه مراوح . ويشربون الماء مذابا فيه السكر بعد أن يقطر بماء البنفسج او سائر الزهور . ويتعاطى الناس اشربة الوان . فاحيانا من نبيذ التمر واحيانا من عصير العنب . وقد الف ابن قتيبة بعد

ذلك العصر كتاب في انواع الشراب ومن شرب فيه وكميته ونوعه . ولم يبق احد في الخمر ما قاله شعراء هذا العصر كأبي نواس وابن سيابه

واتخذ المترفون الندمان وشرطوا فيهم شروط دقيقة من خفة الروح ، وحسن الحديث ، وحفظ الشعر ، وجودة المروءة ، والمبالغة في الاستمتاع . وكثر عدد فرسانه حتى نقلوا الى اصفهاني . وكان الرشيد مجالس عامرة . وصاحب الشراب اذ ذاك يعتني حتى صنوفه بمسك وماء الورد ، وكانوا يعطرون مجالس الشراب بروائح العنبر والمسك

الألعاب الرياضية

واشتهرت الالعاب الرياضية بالصيد ، ولكثرة ما وصفه الشعراء وجعلوا من شعرهم بابا سموه الطرد كما فعل ابو نواس . وعنوا بحيوانات الصيد وصوره حتى جعلوه علما سموه البيزرة . واشتهر في ايام الرشيد لعبه الشطرنج والنرد . كما انتشر لعب الصولجان ولعب بالسيف والترس وسباق الخيل

وقد وصف المسعودي يوما للرشيد كل فيه سباق الخيل امامه ، وجلس هو في صدر الميدان يشرف على السباق وانقسم الناس الى صفات لا تعدى احداها الاخرى . وكان ذلك تمهيدا للفرس في مستهم استعلاء في طبقات الخلفاء على رأس الطبقات . ولمه كثر الموظفين من وزراء وقواد ثم البيت الهاشمي ، ثم جند الدولة وأخرس . وكثرت الاعياد في الدولة العباسية . منها في بعضها للفرس كالنيروز وفي

[illegible] للنصارى . أما حياة البؤساء الفقراء في زمانهم فقد عبر عنها خير تعبير أبو العتاهية في قوله :

رغيف خبز يابس تأكله في زاويه
وكوز ماء بارد تشربه من صافيه
وغرفة ضيقة نفسك فيها خاليه
أو مسجد بمعزل عن الورى في ناحيه
تدرس فيه دفترا مستندا لساريه
معتبرا بمن مضى من القرون الخاليه
خير من الساعات في فيء القصور العاليه
فهذه وصيتي مخبرة بحاليه
طوبى لمن يسمعها تلك لعمري كافيه
فاسمع لنصح مشفق يدعى أبا العتاهيه

حرية الأديان

وبجانب المسلمين في المملكة الإسلامية كان أهل الذمة وكان من أكبر دخل الدولة الجزية التي كانت تجبى منهم . وكان من بينهم كثيرون موظفين كبارا كجبرائيل بن بختيشوع

وقد عرف عن الرشيد أنه كان شديد الوطأة عليهم .. فقد ألزمهم بنوع من الملبس يختلفون به عن المسلمين . وأمر بهدم الكنائس التي بنيت بعد الفتح الإسلامي وألزم النصارى لبس الزنار . ومع ذلك كان لهم قدر كبير من الحرية في أعماله ومعابده والكتب الدينية . وقد ترجمت التوراة والإنجيل ترجمة جديدة في عهد الرشيد — وكان النصارى ينقسمون إلى مذهبين الكنيسة اليعقوبية ، والكنيسة

ـسطورية ـ والاكثر يسمون الكنيسة النسطورية ورئيسهم
ان يعرف بالجاثليق . وقد منح حق السكنى في بغداد .
كان في بغداد حتى تضيق عليه حتى ازيلم وله ايضا حق
ارسال المبشرين في انواع مختلفة . حتى كان من اتباعه
المشرق في الصين . وكم لعبت الاديرة ورهبانها بعقول
الشعراء امثال ابي نواس

اثر الاديرة

وكانت الاديرة مدرا لشيئين متناقضين . حيث يزهد عند
الرهبان . يتلقى عنهم الزهد ونسكهم وسماحتهم . والعبث
عند الادباء . وذلك لانه كان يوجد في هذه الاديار بعض
الجميلات والوسيمين من الفتيان والفتيات . وكانت الاديرة
ايضا في الغالب تقع في امكنة منزهة والمناظر البديعة .
ذكر فيها المجان والشعراء من شعرهم . فقال الشاعر :

بنت صورة في بيعة ... فتن الله الذي صورها
زادها الناس في تحسينها ... فضلا حسن انه نصرها
وجهها لا شك عندي فتنة ... وكما هي عند من نصرها
ان للنفس عليها حسدا ... لست ادري عشق قبرها

وقد وصف ابن المعتز ليلة في دير وصفا بديعا . فقال :

سقى المطية ذات الظل والشجر
ودير عبدون اهطال من المطر

مطالما نبهنني للصـــبوح بهـــا
في غرة الفجر والعصفور لم يطر

اصوات رهبـــان دير في صلاتهم
سود المدارع نعارين في الســحر

مزنرين على الاوساط قد جعلوا
على الرءوس اكاليـــلا من الشعر

كم فيهم من مليح الوجه مكتحل
بالســحر يطبق جفنيه على حور

لاحظته بالهوى حتى استقاد له
طوعا واسلفني الميعـــاد بالنظـــر

وجاءني في قميص الليل مستترا
يستعجل الخطو من خوف ومن حذر

فكنت افرش خدى في الطريق له
ذلا واســحب اذيالي على الاثر

ولاح ضوء هلال كاد يفضـــحني
مثل القلامة قد قدت من الظفر

□

وقد روى في الاغاني من ألوان هذا الشعر الشيء الكثير . وبجانب هؤلاء اليهود والنصارى كانت الصابئة في حران ، وقد عوملوا معاملة اهل الذمة . وكانت بينهم الفلسفة اليونانية . كما كانت هناك صابئة في العراق لا تزال بقاياهم الى اليوم يسمون الصبة . كما كان كثير من الرعية من اتباع زرادشت واتباع ماني . وقد عدوا ايضا من اهل

الكتاب وعوقبوا بعقابهم . والحق انه وان أشعر أهل الذمة بمرارة عقائدهم في الجو الاسلامي وشعائرهم واشعر العرب بعقائدهم . فقد أشعر العرب شيئين عظيمين ، وهما دينهم ولغتهم ..!

الكتاب

وكان للمسلمين طريقة في تعليم أولادهم ، فهم يرسلونهم الى الكتاب – وكان معروفا في ذلك العهد – وقد وصفه أبو نواس في بعض شعره اذ قال

إني أحببت شجيناً	قد بدا منه صدود
جالس فوق قصي	وحواليه قعود
يرمي بطرف نحوي	وهو بالطرف شديد
ذاك في مكتب حفص	بن حفص لسعيد
قال حفص اجلدوه	انه عندي بليد
لم يزل مذ كان في الدر	س عن الدرس يحيد
كشفوا عنه جرورا	وعن الخصر يزيد
ثم هالوه بسيبي	لين منه عود
عندها صاح حبيبي	يا معلم لا أعود
قلت يا حفص اعف عنه	انه سوف يجيد

وهذا يدلنا على انه كان في عهد ابي نواس كتاب وكان فيه بعض الاغنياء بجوار اولاد الفقراء ، وكان فيه ضرب شديد . وكان معلمو الكتاب مشهورين بالغفلة والسذاجة حتى وضع فيهم الجاحظ رسالة لطيفة يستخف بهم . والى جانب الكتاتيب كان الاغنياء يعلمون اولادهم بالمعلمين الخصوصيين .

ويروى الأغاني أن التلاميذ في الكتاب كانوا إذا أتموا حفظ القرآن سير بهم في الشوارع ونثر عليهم اللوز . وقد حدث مرة أن [illegible] ثورة على [illegible] فغضب . وكانت الكتاتيب هذه مقصورة على الذكور دون الإناث

وكان من أهم مصادر الثقافة حوانيت الوراقين . وقد روى أن الجاحظ أنه استأجر كثيرا من دكاكين الوراقين كي يحبس فيه ويطالع كتبه ويستوعب ما فيه . وكان يرد على هؤلاء الوراقين بعض العلماء والفقهاء يتجادلون فيما بينهم في المسائل العلمية

□

ولم يمنع المسلمين نهي الإسلام عن التصوير من ازدهار التصوير ومنه الخطوط الجميلة والموسيقى والغناء ، فقد نبغوا فيها كل النبوغ . وكانت مجالس الرشيد وبلاطه ملأى بالغناء والموسيقى . وكانت هناك مدارس لهم — كما كان هناك أصحاب الموسيقى النظرية والعملية — فهم ينقلون فلسفة الغناء عن أرسطو وفلسفة جالينوس وفلسفة الهندسة . كالذي فعله الفيلسوف الكندي بعد ذلك نفس

بغداد

عروس الأقطار الاسلامية


بغداد القديمة
ضاحية قطربل
نهر الدجيل
نهر عيسى
الشام
ضاحية ادرويا
قناة دجاج
الكرخ
جدول جعفري
ضاحية نهر بوق
نهر بين
ضاحية كلوذى

عظمة بغداد

هذا النظام الإداري والاجتماعي الذي ذكرناه كان مركز
حكمه هو بغداد، وعلى منواله تسير سائر الأقطار الإسلامية

وبغداد هذه مدينة خططها المنصور مدورة، وجعل لها
أربعة أبواب سماها بأسماء المدن التي تتجه نحوها، وهي
أبواب البصرة، والكوفة، والشام، وخراسان، وحفر
حولها خندقا، وبنى على كل باب قبة عالية ينتصب حول
الفارس وهو يمسك رمحه ويدور مع الأهواء، وبنى
في الوسط قصرا ذهبيا يعرف بقصر الذهب

وبنى على مقربة من هذا القصر المسجد الجامع وقصور
الأمراء والأشراف ودواوين الحكومة، وكانت ضواحي
المدينة مليئة بالحدائق والبساتين، الأسواق بها عامرة
والحمامات العامة والجوامع الفخمة على جانبي النهر، وقد
تم بناؤها في أوج عظمتها على هذا النمط، ويخترق المدينة
على جانبي النهر شوارع فسيحة يبلغ اتساعها أربعين ذراعا
وقد قسمت إلى مربعات، ويقوم على حراستها حرس لها
حراس يقفون في الأبراج العالية. والماء يصل إلى الدور
في جداول، وتكنس الشوارع وتنظف على نظام معين.
فكان يعلو قصر الذهب قبة خضراء، ويبلغ ارتفاعها ثمانين
ذراعا وعلى القبة تمثال فارس وبيده رمح طويل، ويعد هذا
القصر بزينته رمز العباسيين

□

وكانت بغداد مدينة زاهرة بكل العلوم والفنون، ملأها

المتنور، ثم سعت أن يذهبوا ويحصلوا على كل أسباب
الترف والنعيم ، وبعد مدة قصيرة من بنائها كانت عروس
الأقطار الإسلامية والأوربية ، فلم تكن على وجه الأرض
آنذاك مدينة تضاهيها ، لا عاصمة البيزنطيين ولا عاصمة
الساسانيين في الصناعة أو في العلم - ولم تساوها الشام
ولا فارس في عهد الدولتين الرومانية والفارسية . ويحدثنا
مؤرخو بغداد عظمة هذه الحضارة ، حتى إذا قرأناها فكأنما
نقرأ وصفا للحضارة العصرية

وكثرت الرحلات منها إلى البلاد الأخرى كالمغرب
والشرق والغرب . يدعوهم إلى هذه الرحلات حب التجارة
والتبشير بالإسلام . وكانوا إذا وصلوا إليها احتفظوا
بصبغة مدينتهم مستسهلين الصعاب والمخاطرة بالنفس
فإذا قورنت هذه المدنية بمدنية المسلمين وخاصة في
بغداد ، كانت المدنية الإسلامية وكانت هي موضع الحسد
للغربيين حتى أنهم كانوا يستمدون في شرائعهم من التشريع
الإسلامي ، وكان العالم الأوربي وقتئذ في جهل كبير

ويقول الخطيب البغدادي إنه أحصى السميريات ، وهي
نوع من القوارب الصغيرة فكانت ثلاثين ألفا تدر على ملاحيها
في كل يوم تسعين ألف درهم ، وكان عدد الحمامات ستين
ألف حمام ، وبإزاء كل حمام خمسة مساجد

□

وكانت بغداد تنقسم إلى محلات ، كل محلة قطعة من
الأرض بها مبان وقصور وشوارع ومساجد وأسواق وجوامع ،

وكل محلة عليها باب كبير يقف عنده الحراس فيمنعون دخول المحلة ليلا إلا بإذن . كما كان هناك أسواق متعددة .. كسوق العطارين وسوق النساجين وسوق الصاغة ، إلى آخره .. كما أقيمت فيها القصور الضخمة العالية ، وحولها بيوت صغيرة لحاشيته .. وكل قصر فيه بستان وقد يكون فيه مسجد لأهله .. واشتهر في بغداد ست قصور كبيرة منها قصر الخلد ، وقصر زبيدة ، وقصر التاج وقصور البرامكة وقصر الحسني ، وقصر المهدي ..

المذاهب الدينية

وانتشرت في بغداد المذاهب الدينية والفرق . قال المقدسي : « فقد رأيت في بغداد من فقهاء أبي حنيفة إلا رأيت رفعة أو دسيسة مؤلفة فيها ، والحفظ والخشية والورع وفي أصحاب مالك أرى الثقل والبلادة والديانة والسنة وفي أصحاب الشافعي الحذق والشغب والمروءة والحمق . وفي أصحاب داود الكبر والحدة والكلام واليسار وفي أصحاب المعتزلة اللطافة والدراية والفسق والسخرية . وفي الشيعة العقدة والفتنة واليسار والصيت .

بساتين بغداد

كما انتشرت فيها البساتين .. استجلبوا أشجارها من كل الأقطار ، واختاروا منها ما يصلح لجو بغداد ، وعرفوا موسم كل نبت وكل شجرة . وانتشرت بينهم الزهور ، وأعجبوا بها أيما إعجاب . وكان بعضهم يهيم بالورد ،

وبعضهم يسميه بالنسرين ، حتى كان بعضهم يعلق دكانه في
موسم الورد ، ويعصبه بالورد لا سيما الأحمر أو
الأحمر الخالص ، فتعددت أنواع الورد وكثر عشاقه ،
وبعضهم يميل الى الورد المطبق بعضه أحمر ونصفه أصفر ،
ويسمونه الورد الموجه

وكانت في بغداد حدائق للورد خاصة ، وحدائق خاصة
بالأزهار الأخرى [illegible] من لديهم حب الورد ، فلكل نوع
منه لغة خاصة [illegible] والعشيقة ، كما اشتهرت بغداد
في تلك الأيام [illegible] ظرفهم وظرفائهم ، كما تشتهر باريس في
[illegible] اليوم [illegible] وتسمع للظارف عندهم قوانين ، وأصبح أهل
بغداد بالظرف [illegible] حتى قالوا فلان تبغدد
أي تظرف وترقق ، وشاعت هذه الكلمة الى عصرنا هذا ،
قال المقدسي [illegible] أحسن خلق [illegible] من أهل بغداد ، وقال
[illegible] هي مصر الاسلام ، ولهم خصائص من ظرافة
[illegible] [illegible] هواء رقيق ، وعلم دقيق ، وكل صيد
بها ، وكل حسن فيها ، وكل حذق منها ، وكل قلب اليها ،
وكل حرب عليها ، وقال غيره في وصف أهلها [illegible] ظرفاء
حذاق يستشهدون الأشعار ويتحدثون أحداث الآداب ،
ويقولون على من [illegible] [illegible] اذا كان ظريفا ، فلان [illegible]
من [illegible] ويعرف بظرفه .

▭

وجاء في وصف عرس [illegible] البغدادية قول بعضهم
فيها ، وكانت عروس [illegible] محسنة ، وشاعرة [illegible]

بالشعر ، وكانت مليحة الخط وتبدع في الكلام وظرف وحسن الصورة والرواية للشعر والأدب وملاحة والصحبة مما لم يتعلق به أحد من عرب ولا روي في نساء عصره [illegible] . وهذا وصف يكاد يكون من الأعلى للعباسيات . وكان يكثر فيهم [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] وصارت بعضهم [illegible] من بعدهم [illegible] [illegible] علامة الترفه

وقال الجاحظ في وصف البغداديين : إنهم يستملحون النساء إذا كانت حديثة السن ومقدودة مجدولة ، وقد روت لهم الأمثال الكثيرة الطريفة يقولون فلان كيس من كيس — مجلس بلا [illegible] كسجود بلا [illegible] — [illegible] العيب إلا في الفتى — كلام يكتب بماء الذهب على خدود العذارى — من كلام الناس ما يقوم مقام الماء .. الخ ..

الغزل والزينة

ونشر بشار فيما بينهم الغزل [illegible] [illegible] [illegible] الغزل المذكر [illegible] قوانين الظرف ووصفهم الظريف بأنه لا يتدخل في حديث بين اثنين ولا يتكلم فيما لا يعنيه ولا يتثاءب ولا يستنثر ولا يتمخط ولا يمشي في [illegible] ولا يمد رجليه ولا يمس أنفه ولا يسرح في [illegible] ولا يجلس إلا حيث يجلس أمثاله ، ولا يأكل مما يتخذ في الأسواق ولا يأخذ شعره في دكان حلاق ولا يماكس في الشراء ولا يشارط صانعا ، ولا يصاحب وضيعا ولا يكون إلا طيب الرائحة نظيف البدن ولا يطول له ظفر ولا [illegible] له

أنف . ومن أثر بغداد ما وصف به ابن جرير الطبري ، فقيل : كان اذا جلس لا يكاد يسمع له تنحنح او تبصق ، واذا أراد ان يمسح ريقه أخذ ذؤابة منديله ومسح جانب فمه . ومن قولهم

لا خير في حشو الكلا م اذا اهتديت الى عيونه
والصمت أجمل بالفتى من منطق في غير حينه

ويساوي ابن بغداد ما يسمى عندنا اليوم ابن البلد وهم يكثرون من التزين . زينة الشعر وقد تفننوا فيه ، وكن الجواري يفتن في شعورهن ، فمنهن من تجعله فوق رأسهن كالتاج . ومنهن من تجعله كالعناقيد ، ومنهن من تسدل شعرها على أذنيها وتجمع ما بينها وبين وجنتيها ومنهن من تستعمل الطرة الهلالية . وهي ان تسدل جميع الشعر فوق الجبهة ثم تقطع منه مثل نصف دائرة فيكون كأنها الهلال

واستكثروا من تدهين الشعر . قال الجاحظ في أيامه «دعت الغسان ثم ترى شيء يعرق الشعر بالدهن» . وعلقن النساء شعورهن بعد غسلها بالمسك والعنبر . واستعملن الحناء والخضاب ، وكتبن على الأكف والأيدي بالحناء . قال الوردي : قرأت على راحة يد جارية لبعض جواري المأمون على اليمنى بالحناء

فديتك قد جبلت على هواكا فقلبي ما ينازعني سواكا

وعلى اليسرى

أحبك لا ببعضي بل بكلي وان لم يبق حبك من حراكا

وكتب بيده على كف جاريته بالحناء

أبى الحب إلا أن أكون معذباً   ونيرانه في الصدر إلا تلهبا
وواكبدا حتى متى أنا واقف   بباب الهوى أشكو الهوان وأنصب

واستكثروا من العطر والطيب .. فاستعملوا المسك الممزوج بماء الورد المحلول ، والعود المعتبر بالزعفران ، والعنبر الشحري الخ ، كما استعملوا بخور العود، وخشب الصندل وكذا البخور الهندي وهو خليط من العود والمسك واللبان واشترطوا لجودته أن تكون فحمته التي تحرق فحماً خشبياً من شجر الغضا لأنه عديم الدخان ولم يكونوا منهم يستعملون فحماً يسمى فحم المسموع المطيب وهو الذي خرج بركته ..

كثرة الدعابة

وكثرت فيهم الدعابة وروى عنهم فيها الشيء الكثير في أخبار الجاحظ وغيره . وكان في بغداد كثير من المضحكين وحفاظ النوادر كأبي العبر وابن المغازلي . من ذلك ما حكي أن ابن المغازلي غدا وقف على باب دار الخلافة يوما يضحك الناس ويتنادر واحد يوما في نوادر الخدم حتى ضحك الخادم . ودخل على خليفته وهو يضحك فأنكر الخليفة ذلك وقال « ويلك مم تضحك ؟ » وقال « على الباب رجل يتكلم بحكايات ونوادر مضحكة» فأمر الخادم بإحضاره فاشترط الخادم أن يكون له نصف الجائزة وقال الخليفة للمغازلي بلغني أنك مليح الفكاهة وعندك نوادر محبوبة مضحكة فقال « يا أمير المؤمنين الحاجة تفتق الحيلة » قال الخليفة « هات

[illegible] إن أضحكتني [illegible] درهم [illegible]
تضحكني فما لى عليك ؟ »

قال : « افعل بى ما أردت » ، قال الخليفة [illegible]
[illegible] الجراب خمس صفعات » . وكان عند الجراب
[illegible] الضحك انه ممنوع وليس فيه الاعواء
[illegible] ، ثم أخذ فى النوادر والحكايات فما ترك
حكاية [illegible] ولم يترك حكاية لعربى ولا نحوى ولا
[illegible] والخدم يكادون
[illegible] من الضحك [illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible] من هو شريكك ؟ » قال : « الخادم الذى أحضرنى
[illegible] حتى [illegible] » . فضحك الخليفة حتى
[illegible] .

انتشار الزندقة

وانتشرت فى هذا العصر الزندقة . . اشتدت فى عهد

المهدى ، واشتهر عنه تزندقه ، واستمر الى عهد الرشيد ، وكانت كلمة الزندقة ككلمة الشيوعية اليوم غير محدودة المعنى عند العامة ، وهى تهمة يتهم بها الشخص عدوه لينال السلطان منه ، فكانوا يطلقونها على معان كثيرة

١ – كانوا يطلقونها على الماجن كحماد عجرد وآدم بن عبد العزيز ، لامعانهما فى اللهو

٢ – وكانوا يطلقونها على الشخص لعقائده حتى يكرههم الناس ، وحتى يسهل تحليفه عليهم وتولية أولاده بعدهم ، أو على الشخص العظيم الذى يريد الخلفاء أن يتخلصوا منه كما أطلقوها على أبى مسلم الخراسانى وعلى البرامكة

٣ – وكانوا يطلقونها أيضا على الذين يلحدون فى أقوالهم كقول أبى نواس

فدع الكلام فقد أطعت غواية ... وصرفت معرفتى الى الانكار
ورأيت اتيانى اللذاذة والهوى ... وتعجلا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل ... علمى به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه ... فى جنة من مات أو فى نار

وقوله :

يا ناظرا فى الدين ما الأمر ... لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى ... تذكر الا الموت والقبر

وقوله :

قلت والكأس على كفى تهوى الالتثام
أنا لا أعرف ذاك اليوم فى ذاك الزحام

وقول ابن سيابه :

قل لمن يلحاك فيها ... من فقيه أو نبيل

[illegible] وأرح أخرى من رحمتي لمستقبل
[illegible] ومن كانوا يسمعون مثل هذا القول ،
كانوا [illegible] طائفة [illegible] على قائل مثل هذا
هذا القول [illegible] واحد [illegible] . [illegible] مسامحة
نرى أن هذه الأقوال قيلت على سبيل الفكاهة والملح

٤ ـ وكانوا يستعملون كلمة زنديق أحياناً للدلالة على
[illegible] والمجون [illegible]
[illegible] اذا ذكروه زنديق طريف
[illegible] ولا [illegible]

٥ ـ وأخذنا [illegible] على طائفة من الفرس كانوا
[illegible] الإسلام [illegible] من [illegible] وغيرها
ولكن هذا [illegible] كثيراً في هذا العصر [illegible] أن عادة
الدولة الفارسية كما كانت في العصور الأولى قبل الفتح
الإسلامي

وأول [illegible] الكلمة [illegible] على قوم عرفوا بأصالة
الفكر [illegible] . ولكن [illegible] بأسمهم ، فاتهموا
بالزندقة [illegible] كما حدث مع عبد الله بن المقفع

عناصر متعددة

وكان السكان في هذا العهد يتكونون من عناصر
مختلفة [illegible] في [illegible] وفي عقليتها وعاداتها وتقاليدها
[illegible] .. وامتزجت كلها في أتون واحد . ذلك
لأنها [illegible] من أمم مختلفة على أثر فتوح الأموية .
فكان [illegible] العنصر [illegible] من بلاد العرب ، والعنصر

الفارسي الوارد من بلاد فارس ، والعنصر العربي الوافد من جزيرة العرب ، والمسيحيون [illegible] والنبطيون والروم [illegible] كما يسميهم العرب [illegible] والسريان وغيرهم من العناصر والأجناس الأخرى .

وكان لكل من هذه العناصر عقلية خاصة [illegible] وأخلاق خاصة . ولكل عنصر مزاياه ، وقد عدد الجاحظ مزايا العناصر في عصره فقال : [illegible] أهل الصين الصناعة فهم أصحاب السبك والصياغة والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسيج ، واليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل ، وميزتهم الحكم والآداب ، والعرب لم يكونوا تجارا ولا صناعا ، ولا أطباء ، ولا حسابا ، ولا أصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ، ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية ، ولا طلبوا المعاش من ألسنة المكاييل ورؤوس الموازين ، ولا عرفوا الدوانيق والقراريط [illegible] قول الشعر وبلاغة المنطق وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحروب ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس . وميزة الفرس في الملك والسياسة ، وميزة الأتراك في الحروب ، والزنج أطبع الخلق على الرقص والضرب بالصنج وعلى الإيقاع الموزون من غير تأديب ولا تعليم ، وليس في الأرض أحسن حلوقا منهم ، وليس كل يوناني حكيما ، ولا كل صيني في غاية من الحذق ، ولا كل أعرابي شاعرا قائفا . ولكن هذه الأمور في هؤلاء أعم وأتم وفيهم أظهر وأكثر .

كذلك كانت هذه العناصر تختلف في الأهواء والسياسة ، وقد عرفت شيعة الكوفة بالتشيع لعلي وأولاده .. والبصرة بالتشيع لعثمان وأهل بيته . واشتهرت الجزيرة بأنها عش الخوارج . وأهل الشام لا يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان . واشتهر أهل مكة والمدينة بالميل إلى أبي بكر وعمر لا يعدلون عنهما

كما كان في هذه البلاد نصارى حافظوا على شعائر دينهم ويهود كذلك ، ومجوس يوقدون نيرانهم

ولكن من هؤلاء جميعا أدب وعلم .. وهؤلاء كلهم يتزاوجون فيخرج منهم مولودون يحملون جزءا من طبائع آبائهم وجزءا من طبائع أمهاتهم ، وجزءا من شخصيتهم . وخير مثل على ذلك قصور الخلفاء ، فالمنصور كان له امرأة كردية ولدت له جعفرا الأصغر ، وامرأة رومية ولدت له ابنا سمي صالحا المسكين ، وامرأة أموية أولدها ابنا تسمى العالية وهكذا

وكان للرشيد زوجات غير جاريه غير الجواري .. فله جارية فارسية أولدها المأمون وأخرى أولدها المعتصم ، ويقال إنه كان للمتوكل أربعة آلاف سرية .. الخ

▭

وكما كان هناك توالد بين الأجناس كان هناك توالد مثله بين العقول . فعقل عربي مع عقل يوناني يكون منه نتاج خاص . وكذلك العقل المتولد من فارسي وعربية ،

او بين عربي وهندية . أو بين مسلم ونصرانية أو بين مسلم ويهودية

ومع هذا الاختلاف في العناصر والأديان والعروق والعقائد كانت كلها تصب في قالب واحد نتيجة للبيئة الطبيعية والاجتماعية كالذي تراه اذا دعيت الى أوربا فنظرت الى وجه حكمت بأنه مصري ، ولا عبرة في ذلك بين الأبيض والأسمر ، وجعد الشعر ومرسله .. لأن لكل أمة وحدة يستوي فيها الأفراد مع اختلافهم في الدم والدين وغير ذلك . وكان العنصر المسيطر في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين هو العنصر العربي ، وسائر الاجناس كانت تبعاً لهم . رووا أن رجلا من الموالي خطب بنتا من أعراب بني سليم وتزوجها فركب محمد بن بشير الخارجي الى المدينة وقابل الوالي فأرسل الوالي الى المولى وفرق بينه وبين زوجته وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبه عقابا له على أنه تزوج أعرابية ، فقال محمد بن بشير للوالي :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد
وفي المئتين للمولى نكال وفي سلب الحواجب والخدود
اذا كافأتهم ببنات كسرى فهل يجد الموالي من مزيد
فأى الحق أنصف للموالي من اصهار العبيد الى العبيد

▭

ولم يزل الحجاج واسطا يده على النبط منه ، ويسم أيديهم بالمشرط ، وكتب الى عامله بالبصرة . اذا قرأت كتابي

[illegible] من [illegible] من [illegible] [illegible] القدس و[illegible] .
ولم [illegible] [illegible] في الكوفة إلا عربي . وكان
العرب في [illegible] الأموية [illegible] العربي من السوق
[illegible] شيء [illegible] فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه . ولو
[illegible] [illegible] والمولى ماش . فلما جاء الفرس [illegible]
[illegible] [illegible] فكرة الشعوبية [illegible] فيها المساواة
[illegible] أن في كل أمة مزايا وعيـــوبا ، وألفوا في ذلك
[illegible] [illegible] من [illegible] العرب ويذكرون مثالبهم كالذي
[illegible] أبو نواس
[illegible] ومن [illegible] [illegible] الأعاريب عند الله من أحد

الشعوبية

و[illegible] [illegible] أول الأمر لهذه الدعوة الشعوبية
[illegible] [illegible] [illegible] أحد [illegible] أحيانا
[illegible] [illegible] نكبة البرامكة نتيجة لهذه الخصومة الشديدة
بين [illegible] العرب في السر والعلن . قال ابن خلدون
[illegible] [illegible] [illegible] جعفر [illegible] عرب من أعظم الساعين
[illegible] [illegible] [illegible] على العرب بهزيمة الأمين
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الفرس على يد الأتراك
[illegible]

[illegible] الشعوبية [illegible] [illegible] للإسلام ولم
[illegible] العرب [illegible] على [illegible] أبي نواس والخريمي
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الفارسي . يقول
بعضهم

ويشب ... ايوان كسرى ... أو حوض ... [illegible]
وشب في الخلافة ... [illegible]

ويقول الخريمي

أي امرئ من سراة الشعد ... [illegible] ... عرق الأعاجم ... [illegible]

ويقول :

ان ... ناس ... [illegible] ... حلاق ... [illegible]
فان ... [illegible] ... فلا ... [illegible] ... العقل
أرى الناس ... [illegible] ... ولا ... على ... [illegible] ... ولا ... [illegible]
اذا ... [illegible] ... من المجد ... [illegible]

ويقول المتوكل :

أنا ابن المكارم من نسل ... [illegible] ... ملوك الأعاجم
... [illegible] ... الكاسات ... [illegible] ... أسود ... [illegible]
فقل لبني ... [illegible] ... على الخيم ... [illegible]
... [illegible] ... وضربا ... [illegible]

وعلى العموم ... [illegible] ... الفرس العرب ... [illegible] ... من طرق
معيشته من طريقه ... [illegible] ... شأن العرب ... [illegible] ... من الكتب
ومن عيبهم الآثم في الحرب ووضعهم الكتب في مثالب
العجم ومناقب العرب . وكثرت في هذه الآونة الكتب
المعروفة بكتب المثالب ووضع القصص ... [illegible]
العرب ومفاخر الفرس .. الخ

المدن الزاهرة

والى جانب بغداد كانت مدن أخرى عامرة زاهرة وان كانت
أقل منها . وهي أيضا ... [illegible] ... وان كان ... [illegible]

من شغب في بغداد ، فقد جرت العادة أن تصرف المدينة على جندها وعلى ما يتبعها وعلى عمارة ما خرب منها . ثم يرسل الباقي إلى الخليفة في بغداد . ومن أهم المدن في عصر الرشيد البصرة . عني العرب بتخطيطها فجعلوا شارعها الأعظم ستين ذراعا . وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع وجعلوا أوسط كل خط ميدانا فسيحا لمرابط خيولهم وقبور موتاهم . وقد اشتهرت بتجارتها الواسعة مع الهند والصين والمغرب والحبشة

واشتهر أهل البصرة كذلك بالأسفار البحرية حتى قالوا : أبعد الناس نجعة في الكسب بصري .. وبالغ الواصفون في كثرة أنهارها وكثرة الزوارق فيها . ولعلهم لكثرة ما رووا من عدد الأنهار أنهم كانوا يعدون الجداول أنهارا . واشتهرت بالنخيل الكثير المتعدد الأنواع إلى يومنا هذا . واشتهرت كذلك من مدن العراق الكوفة ، وقد عرفت بتشيعها لأن الإمام عليا جعلها عاصمة خلافته إلى أن قتل .. وتحزبت الكوفة والبصرة في المذاهب النحوية ، فكان للكوفيين مذهب وللبصريين مذهب وكان بينهما خلافات كبيرة .. وكل مدن نحاته ، كذلك اشتهرت مذاهب المعتزلة البصريين ومذاهب المعتزلة من غيرهم . وقد كان منشأ مدرسة الاعتزال في البصرة في حلقة من حلقات الحسن البصري

▭

واشتهرت من مدن مصر الفسطاط وهي أول مدن المسلمين في مصر . اتخذها العرب معسكرا لهم حين

فتحوها ، ثم أخذت تزدهر حتى فاقت البصرة والكوفة ،
وزودت في [illegible] العباسيين بكل ما تحتاج إليه مدن الدولة
من جمالها ووقوعها على النيل ، ثم كانت القيروان بالمغرب
ودمشق وحمص في الشام ، والموصل بالعراق ، والأهواز
بفارس ، ومكة والمدينة في جزيرة العرب ، ولا نطيل في
وصفها لأن ذلك يحتاج إلى كتاب وحده ، وكيف كانت
في ثروة الخلفاء العباسيين وإغداقهم الأموال على الولاة
والعمال والأدباء والفنانين ..

وقد اختلفت ثمرات كل قطر من الناحية المادية والمعنوية
فلكل بلد حضارته ومن ثقافته ، ككعك [illegible]
والتمر من البصرة ، والنسيج من حلب ودمشق ، والسكر من
الفرس إلى غير ذلك ، كما كانت النشاط في العلوم فحركة
صوفية نشأت في مصر ، وحركة أعرابية نشأت في بغداد
وأدب بالقلم بكل الشعر ، ومما قاله المقدسي في ذلك
إن الشام العراق أعدل الطرفاء ، ومنبع العلماء ، خصب
له غضب الهواء ، محصور الشتاء ، خرج أن جدة دعمه
فقهاء ، ويقصدها سائر الغرباء ، وأن [illegible] والمرأة [illegible]
البصرة التي فوقت [illegible] وبغداد الممدوحة في الورى
والكوفة الجليلة ، وسامرا . وقد كان لكل ذلك بلد
أهله ونبغ من كل بلد نابغون هم نتاج البيئة .

ازدهار التصوف

وفي عهد [illegible] في العرق التصوف الدعوة إلى
الاهتمام بباطن النفس لا بظواهرها ، وبحقيقة الشريعة ،
لا مجرد أعمال الجوارح ، ورياضة النفس عن طريق الزهد

والعبادة والوصول الى المعرفة عن طريق الوحي والالهام، وذلك بحقيقة بالذوق والشعور لا بالمنطق والتجارب والقياس. واشتهر من الصوفية ابراهيم بن أدهم سنة ١٦٢ وشقيق البلخي سنة ١٩٥، ومعروف الكرخي سنة ٢٠٠ وهو القائل: «التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الناس».. وبشر الحافي سنة ٢٢٢ وهو القائل للمحدثين: «أدوا زكاة هذا الحديث».. قالوا: «وما زكاته؟».. قال: «أن تعملوا بخمسة أحاديث من كل مائتين...»

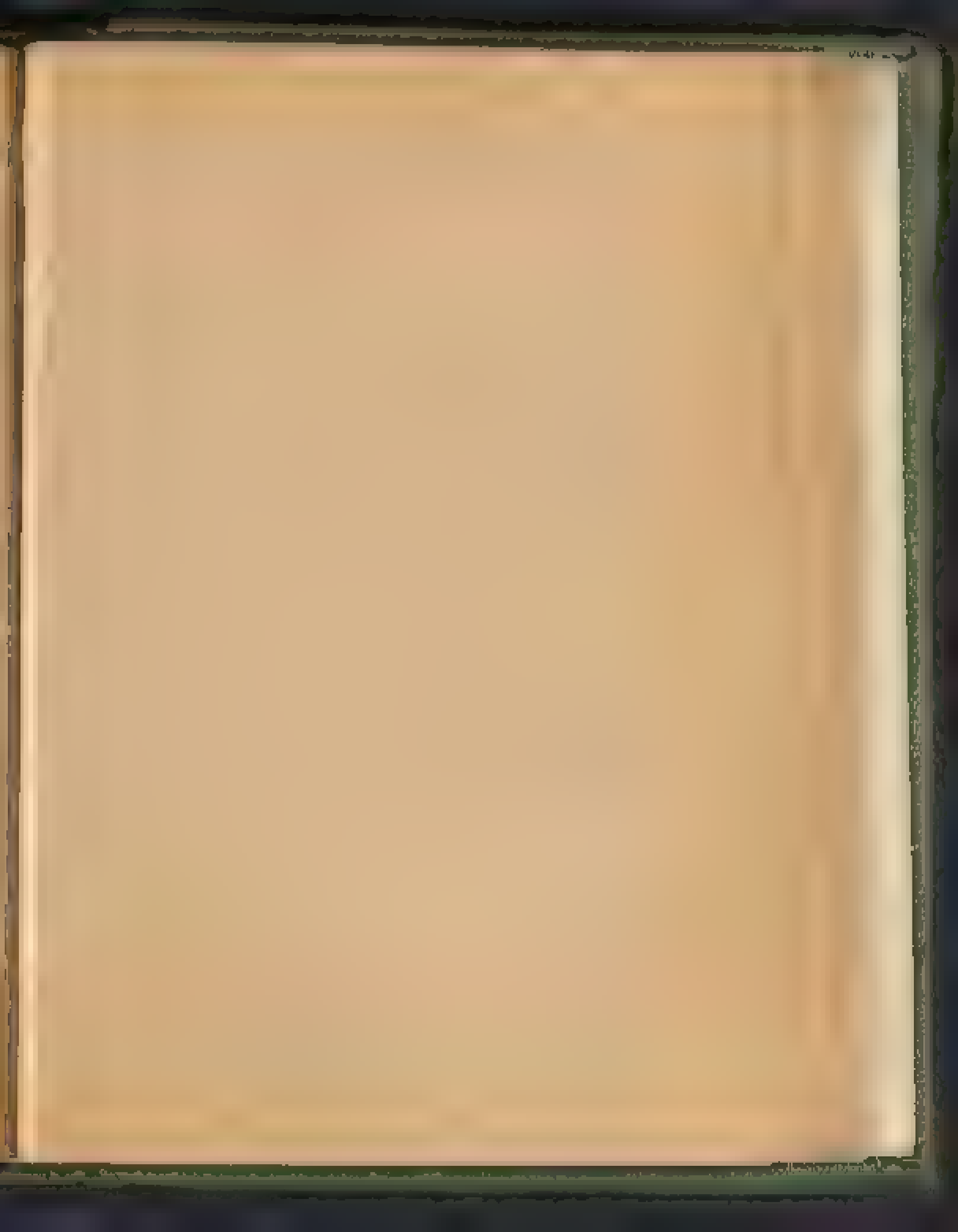
وأخذ الصوفيون يصنفون الكتب في التصوف، كما كان يفعل الفقهاء في تأليف الفقه.

وبدأ الخلاف بين الفقهاء والصوفية لاختلاف منزعهم؛ فالصوفية يعتمدون على القلب وعلى الذوق وعلى المعرفة عن طريق الالهام.. والفقهاء يعتمدون على ظاهر القرآن والسنة، وعلى الاستنباط العقلي.

وكانت الخصومة أشد ما تكون بين الصوفية والحنابلة سببها تمسك الحنابلة بظاهر النصوص ورميهم الصوفية بالزندقة.

الرشيد

في قصر الخلد



تولية الرشيد

في هذا الوضع ، وفي هذا الجو ، وفي بغداد هذه ، وعلى هذا النظام الذي ذكرنا بعضه تولى الرشيد .. وقد جلس على العرش في قصر فسيح يسمى « قصر الخلد » ، بناه جده المنصور ، وجعله في الجانب الغربي من دجلة . وهو يقع في منحنى نهر دجلة ، بازاء باب خراسان حتى اذا نشبت نار الثورة كان في استطاعته ان يفر الى خراسان ، وهي أهم مؤسس للدولة العباسية .. وفي ناحية من نواحيه على الشاطئ الآخر قصور البرامكة .. هذا قصر يحيى ، وهذا قصر جعفر ، وهذا قصر الفضل

وله فناء واسع قد ملئ بالجواري والغلمان على مختلف الاشكال والالوان . وقد كان الرشيد يعنى في انتقائهن ، وخصوصا اذا كن مغنيات جميلات أو متقنات الغناء أو اديبات . واشهر من جواري القصر اللاتي نلن عطف الرشيد ماردة وهي التي ولدت منه المعتصم ، و« هيلانة » وهي يونانية كما يدل عليها اسمها . وقد ماتت وحزن عليها الرشيد حزنا شديدا وقال الشعر فيها :

أف للدنيا وللزينة فيها والأثاث

اذ حثا الترب على هيلان في الحفرة حاث

ويقول فيها أبان اللاحقي على لسان الرشيد

بت صحيح الحرب ما أعتل　　لحدث جل عن الوصف
حزنان حزن منهما ظاهر　　وأوجع الحزن ما أخفى
أبت هل الترب من فوقها　　موارينا تحت الثرى أمي
لهفي على هلال لو أنه　　يرد شيئا قلبنا لهفي

وهذا العصر كأنه مدينة صغيرة له أجنحة متعددة .. فهذا جناح للخيزران أم الرشيد بكتبها وعلمائها وجواريها ، وكانت مواكب الأمراء تأتي إلى بابها فنهاها الهادي عن ذلك . وقال لها : من وقف ببابك أمرت بضرب عنقه . أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو سبحة ، فقامت الخيزران وهي ما تعقل من الغضب . وقد ذكروا أنها كان لها شأن في الدسيسة التي حيكت حول ابنها الهادي حتى قتل . فلما تولى الرشيد أعاد لها سطوتها وسلطانها . ولكنها لم تطل مدتها .. فماتت بعد ثلاث سنوات من خلافته . وكان يوم دفنها يوما ممطرا ، فمشى الرشيد في جنازتها . وكانت امرأة عاتية قوية السلطان كبيرة الشخصية تتدخل في شئون الدولة وتسيرها ، تعينها على ذلك يحيى البرمكي وأولاده . وقد خاف ابنها الهادي من سطوتها وتدخلها وشخصيتها فحذر منها بكرهه ..

وهذا جناح زبيدة زوج الرشيد وهي كذلك شخصية قوية حرة لها خدمها الخاصون وعلماؤها وجواريها . وكانت كالخيزران في تدخلها السياسي . غير أنها لم تكن مثلها في دس الدسائس بل كانت بارة محسنة . تنفق الأموال على الملاجيء والمستشفيات ، ومن آثارها الخالدة عين الماء المسماة

باسمها ، والتي نشأت في الحجاز ومدت به الماء الى مكة.
ثم كان في حجرها ابنها محمد الأمين

وهذا جناح علية أخت الرشيد ، وكانت شاعرة مغنية، وهذه مقصورة لها عشاقها وزوارها ومجالس أنسها وسرورها

وهذا جناح العباسة أخت الرشيد ، فهي جميلة أيضا شاعرة تحب جعفر البرمكي وتراسله

وأخيرا جناح الرشيد وهو أعظم الأجنحة ، فيه جواريه الكثيرة وغلمانه الكثيرون وأطباؤه ومضحكوه ومغنوه الى آخر ما هنالك

وعلى الجملة فكان القصر يموج بالفتيان والفتيات والكبار والصغار .. هذه جارية فارسية تتكلم بالفارسية ، وهذه يونانية تتكلم باليونانية ، وهذه حبشية تتكلم بالحبشية وهذه بربرية تتكلم بالبربرية الخ . ثم كانت تموج في القصر تيارات مختلفة .. تيارات سياسية من الخيزران وزبيدة . فالخيزران توالي البرامكة وتؤيدهم وتكره الفضل ابن الربيع وشيعته . وتيار من زبيدة تكره البرامكة وتعاكسهم . وتؤيد الفضل بن الربيع وحزبه . ثم تيارات أخرى غرامية بين شبان القصر وشاباته والعباسة ، وعلية ، والجواري والغلمان

وكانت جواري الرشيد فيما يقولون تبلغ نحو ألفي جارية مختلفة الاجناس .. منهن الروميات ، والسنديات ، والفارسيات . وقد قال خبير بالرقيق وأنواعه إن لكل نوع من أنواع الرقيق ميزات خاصة تعرف بها . فالهنديات وديعات لينات الجانب هادئات قادرات على حسن ورعاية

الصفق ، ولكن سرعان ما تعرض لهن الذبول ، واشتهرت السنديات بالخصر المخطف والشعر الطويل ، واشتهرت مولدات المدينة بالدلال والميل الى السرور والفكاهة والمجون وبحسن الاستعداد للنبوغ في الغناء ، وعرفت مولدات مكة بدقة المعصم والمفصل والعيون الناعسة ، وعرفت الاماء البربريات الغربيات بأنهن لا يبارين في حسن الانتاج ، وهن لدمامة خلقهن ولين عريكتهن صالحات لأن يقمن القيام بمختلف الاعمال

وليس الاعلى مختارة كما يقول أبو عثمان الدلال امة تكون من أصل بربري ، وترحل بلادها في التاسعة من عمرها ، وتمكث ثلاث سنين في المدينة ومثلها في مكة ، ثم ترحل الى العراق في السادسة عشرة من عمرها لتثقف ثقافته ، فاذا بلغت الخامسة والعشرين كانت قد جمعت من جودة الاصل ودلال المدنيات ورقة المكيات وثقافة العراقيات

والسودانيات كن يعمرن الاسواق ، وقد عرفن بجودة السنان والاعمال ، كما عرفن بالميل الى الطرب بالدف والرقص وهن حسن حظ من البيان ، ولكن يعاب عليهن سوء الخلق وخشونة الملمس ، والحبشيات عرفن بالضعف والوهن وبالاستعداد لمرض الصدر ، وهن على عكس السودانيات لا يحسن الغناء ولا الرقص ولكنهن يوثق فيهن ويوضع ثقة ، أهل للاعتماد عليهن

قصر الخلد

ولا يعتبر قصر كثيرا من العلاقات العربية بلغة الوصال

وألم الخصام ونحو ذلك، من ضروب العواطف حتى يحكون أن سبب اتصال الرشيد بأبي يوسف أن الرشيد رأى مرة منظرا غراميا لم يعجبه، فاستدعى أبا يوسف ليسأله عن حق الخليفة اذا رأى هذا المنظر أن يحد الجناة؟ فأفتاه بلا، لأن القاضي لا يقضي بعلمه، فسري عن الرشيد وأجزل لأبي يوسف الصلات، وتوثقت الصلة بينه وبين أبي يوسف من ذلك الحين، حتى عينه قاضي القضاة

نسبت الى عظمة قصر الخلد عظمة بغداد، فقد كانت مموهة بالقصور الفخمة والمساجد الفسيحة والأسواق الحافلة بالدكاكين المليئة بالسلع. وكان يأتيها من مصر السمسم والكتان والقمح والنحاس والذهب والزمرد الأسود. ويأتيها من الحبشة العاج، ومن الأندلس الحرير والصيني والعود والأسلحة الصينية. ومن الهند النباتات ذات العطر الطيب والصمغ. ومن سوريا الزجاج والبللور والأصداف..

□

ومن بلاد العرب البخور. ومن سومطرة البخور الجاوي والزعفران والقرفة. ومن جاوى الماس والعاج والأخشاب الثمينة والصندل. ومن خليج فارس اللآلئ والصدف. ومن سيلان الياقوت واللازورد ومن فارس الأصواف. ومن سمرقند الفيروز والعقيق والمرجان. ومن أصفهان الأقمشة المختلفة. ومن بخارى الأصواف والسجاجيد والأقمشة. ومن مرو الزبرجد. ومن الموصل صفائح الصلب

ومن سمرقند الأطلس والقصب والأقمشة الناعمة . ومن الصين الصيني وحجر الشب والحرير والخام والصمغ . ومن التبت المسك . وهذه كلها تحول خمس ما يرد الى قصر الخلد والقصور حوله . ونجدها كثيرة يسير الشابان هرون الرشيد وجعفر ووراءهما مسرور الخادم متخفين للوقوف وشراء خير ما في الأسواق . كما روي في ألف ليلة وليلة

□

ويقول الاقتصاديون أن الدينار والدرهم ليس لهما قيمة ذاتية وأن قيمتهما بقدرتهما الشرائية . وكانت قيمتهما في عهد الرشيد كبيرة لا تقاس بما نحن عليه اليوم . وقد عثرت على قائمة بثمن بعض الأشياء فيها أن الكبش كان يباع بدرهم ، والجمل بأربعة دنانير ، والتمر ستون رطلا بدرهم . والزيت ستة عشر رطلا بدرهم . والسمن ثمانية أرطال بدرهم . وكان الرجل يعمل في سور بغداد كل يوم بخمس حبات ، وكان يتغذى على لحم البقر في حياته كلها ستون رطلا بدرهم ، ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم . والعسل عشرة أرطال بدرهم . والأسود الثلاثة بخمس حبات . ومن المعلوم أنه في أيامهم كانت الحبة ثلث درهم والدانق سدس درهم . والدينار كانت تختلف قيمته تبعا لنقاء فضة الدراهم أو عدم نقائها ، فكان يساوي مرة عشرة ومرة خمسة عشر ومرة عشرين . وكان مقدار الدينار ذهبا يساوي ستين قرشا مصريا تقريبا ...

ثقافة الرشيد

وكان الرشيد مثقفا ثقافة عربية واسعة، علمه الأدب المفضل الضبي، والنحو الكسائي، وملأه الأصمعي طرفا من طرائفه الأدبية ومنحا من ملحه العربية.

وكان نديمه في الغناء إسحاق الموصلي. وتدل مناقشاته الكثيرة للعلماء والأدباء على تبحر واسع في العلم والأدب، وقد روي عنه أنه كان ينقد الشعراء في أشعارهم، وينقد المغنين في غنائهم، ويختار أصوات هؤلاء وهؤلاء، ويرتب هؤلاء وهؤلاء. كما كان من أدلة ذلك ما جمع له من الأصوات المختارة التي اختارها أبو الفرج الأصفهاني، وبنى عليها كتابه الأغاني.

ولعل أكبر ما يدل على ثقافته وصيته المشهورة التي يقدم بها إلى الأحمر معلم ولده محمد الأمين إذ قال: «يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه. ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تخرق به فتميت ذهنه. ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه. وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة»

وهي وصية حكيمة وضع فيها الرشيد منهج التعليم ومنهج

الأخلاق .. وأصبحت على مر العصور مرشدا لكل من حاول التعليم وأراد ممارسته

ويروى أن الرشيد مرة دعا المفضل الضبي والمأمون عن يمينه ومحمد الأمين عن يساره ، قال المفضل فسلمت ، فأومأ الي بالجلوس فجلست فقال لي « يا مفضل » قلت « لبيك يا أمير المؤمنين » ، قال « كم من الأسماء في فسيكفيكهم الله » ؟ فقلت : « ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين » قال « وما هي ؟ » قلت « الياء لله عز وجل ، والكاف الثانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والهاء والميم والواو للكفار » . قال « صدقت ، كذا أفادنا هذا الشيخ يعني الكسائي » ثم التفت الى الأمين فقال له : « فهمت » ؟ قال « نعم » . قال « أعد المسألة » ، فأعادها كما قال المفضل . قال الرشيد « يا مفضل هل عندك مسألة ؟ » . قلت نعم يا أمير المؤمنين ، قول الفرزدق

احذنا باطراف السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

قال الرشيد « هيهات قد أفادنا هذا قبلك هذا الشيخ » يعني الكسائي » أن لنا قمريها يعني الشمس والقمر ، كما قالوا سنة العمرين يريدون أبا بكر وعمر .. وذلك أنه اذا اجتمع اسمان من جنس واحد ، وكان أحدهما أخف على أفواه القائلين غلبوه فسموا الآخر باسمه . فلما كانت أيام عمر أكثر من أيام أبي بكر وفتوحه أكثر غلبوه . وسموا أبا بكر باسمه . وقد قال الله عز وجل « بعد

المشرقين فشمس الغرب، وهو المشرق والغرب. قال المفضل « نقيت مسألة » . قال « وما هي ؟ » . قال « أراد بالشمس إبراهيم صلى الله عليه وسلم خليل الرحمن وبالقمر محمدا صلى الله عليه وسلم . والنجوم الخلفاء الراشدين من آبائك الصالحين. وهو مصر يرمي إلى نوع من الملق . قال « يا فضل من يربيع أعطى أمه مائة ألف درهم ومائة ألف لقضاء دينه » ، إلى كثير من أمثال هذه الحكايات التي تدل جملتها على ثقافته واستعداده من المفضل والأصمعي والكسائي وأمثالهم

ويروى المفضل أيضا أن الرشيد استدعاه وسأله عن بيت من الشعر فأجاب وفق ما وقع الرشيد . فنزع الرشيد من يده خاتما قيمته ألف وستمائة دينار . فلما علمت الخيزران بذلك أعطته الألف والستمائة واشترت الخاتم منه . وردته إلى الرشيد لأنه كان يعجب به . فرده الرشيد إلى المفضل وقال له « لا يليق بالخليفة أن يسترد ما أعطى ، فصار له الألف والستمائة

امتزاج الثقافات

والى جانب ذلك كان في عهد الرشيد اختلاط الثقافات كأنها جداول صغيرة تكون منها نهر كبير .. فأولا . كان من هذه الثقافات ، الثقافة الفارسية وهي التي عظمت في الدولة العباسية ، مما أنمها عبد الله بن المقفع وأمثاله . وقد كسبت الثقافة الإسلامية العباسية من الفرس أشياء كثيرة. منها الألفاظ اللغوية. وخاصة ما ليس للعرب عهد بأولانها.

من ألفاظ المأكولات الفارسية والمشروبات الفارسية وضروب
الملابس والأثاث والرياش ..

روى أن فارسياً ناظر عربياً في مجلس يحيى بن خالد
البرمكي .. فقال الفارسي : ما احتجنا إليكم قط في عمل
ولا تسمية . ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في أعمالكم ولا
لغتكم . حتى أن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على
ما سمعت ما عربتموها كالاسفيذباج والسكباج والدوغباج
وكالسكنجبين والجلنجبين والجلاب وأمثالها وكالروزنامج
والإسكدار وأمثالها .. فسكت عنه العربي . فقال له يحيى
ابن خالد : قل له : اصبر لنا بعدك كما ملكتم ألف سنة
بعد ألف سنة كانت قبله لا نحتاج إليكم ولا إلى شيء كان
لكم .. ونقرأ في كتاب البيان والتبيين للجاحظ . فنراه
يستعمل ألفاظاً كثيرة من أصل فارسي .. فيسمي الطريق
إذا انفرقت أربعة طرق « جهارسو » والجهارسو فارسية
ويسمي السوق وازار والوازار فارسية وهكذا

وترى أنا نقلوا كثيراً من كتب الأدب الفارسية الأصل ..
وكثيراً من القصص الفارسية . ويحكون أن كتاب ألف ليلة
وليلة أصله فارسي . وقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب
كليلة ودمنة عن الفارسية كما ترجموا عن الفارسية كتاب
زرادشت المسمى الأبستا ، ترجموه هو وما عليه من شروح .
وقد ترجم الحسن بن سهل كتاب « جاويدان خرد » عن
الفارسية

هذا إلى أن كثيراً من الفرس كانوا قد أسلموا وتعلموا

العربية . فكانوا ينقلون الى العربية ما يعثرون من أفكار
فارسية كما نقل كثير من الموقعات والحكم الى العربية من
غير نص عليها . بل لعل من كان من أصل فارسى كله أو
بعضه ، كبشار بن برد وأبى نواس ، لهم معان مأخوذة من
أصل فارسى . ومن رأى ابن خلدون ، أن كثيرين من واضعى
العلوم كسيبويه واضع النحو ، وأبى حنيفة واضع الفقه ،
ونحوهما من أصل فارسى ، وأن الفارسيين فى هذا الباب
أكثر من العرب . وسواء صح هذا أو لم يصح فأقل
ما يدل عليه أن كثيرا من الفرس وضعوا كثيرا من العلوم .
بل ذهب بعضهم الى أن شعر أبى العتاهية لا يمت الى العرب
بصلة ، لأنه ليس متمشيا مع حياة ملوك وترفهم ونعيمهم فى
الحياة ، وإنما هو شعر مستمد من الفارسية ، وخصوصا
من مذهب مانى الزاهد .

كذلك استمرت الثقافة الهندية بدخول كلمات من الأصل
الهندى الى اللغة العربية . وقد سموا السيف مهندا أخذا
من الهند . ومن أشهرها [illegible] سند هند وكليلة ودمنة
الذى ترجم الى العربية من الفارسية من أصل هندى . وكان
هناك علماء من أصل هندى نفعوا بالثقافة العربية ونشروا
الأفكار الهندية كابن الأعرابى . فقد رووا أن أباه زيادا
كان من أصل هندى . كذلك نقل أن التجارة بين
المسلمين فى العهد العباسى والهند كانت واسعة النطاق فى
التوابل وأنواعها . وقد نقلت الى العربية مدلولاتها
وأسماؤها . وحكى لنا المسعودى أنهم كانوا مهرة فى الحساب
والهندسة ، وأن لهم طريقة تخالف طريقة اليونان . هذا

إلى أن كثيرا من عقائدهم في الحلول ووحدة الوجود دخلت
في التصوف الإسلامي

□

وعناصر ثقافة يونانية دخلت في الدول العربية منها ألفاظ
كثيرة كما دخلها الطب والفلسفة . وكان في بلاد العرب
كثير من المثقفين بالثقافة اليونانية كعلماء حران والاسكندرية
وغيرهما . نعم أن العرب لم يستسيغوا الأدب اليوناني
القديم لأنه يبعد كثيرا عن الأدب العربي . فلم يأخذوا
منها كثيرا . وإن أخذوا منها الطب والمنطق والفلسفة

والثقافة الرابعة : الثقافة الرومانية من مثل ألفاظ
اقتطعوها من الجواري الروميات ومن الروميين أسماء
حروب المسلمين معهم وأسرهم الأسارى منهم . وكان مما
عني به في عهد الرشيد وخلفاء العباسيين عامة ، الطب
والتنجيم فاتخذوهما من الصنائع الرسمية . وكان لكل
خليفة طبيب خاص ومنجم خاص . أما حاجة الخلفاء للطب
فواضحة ، إذ كان أكثر الخلفاء مرضى يحتاجون إلى طبيب
يداويهم ويروى أن المنصور كان مريضا بمعدته ولم يستطع
أطباؤه معالجته فاستدعى طبيبا من جنديسابور هو
جرجيس بن بختيشوع وكانت مدرسة جنديسابور
مدرسة عظيمة وتعد مصدرا للثقافة اليونانية ومركزا لنشر
فلسفتها وعلومها أنشأها كسرى أنوشروان وبناها على
شكل القسطنطينية ، واستجلب لها أطباء من الروم ثم
خلفهم من بعدهم من حل محلهم من أهل البلاد . وكان

الذي انشأه فيه بمارستانات مفتوحة للفقراء . فلما جاء الرشيد استطب جبريل بن بختيشوع وأمره بإنشاء بيمارستان ببغداد على نمط مدرسة جنديسابور . وكانت عائلة بختيشوع كلها نصارى نساطرة

□

وطبيب الرشيد هو جبريل بن بختيشوع . وقد أراد الرشيد أول الأمر أن يمتحنه فأحضر له بولا مجهولا فقال جبريل ليس هذا بول انسان . لأنه ليس له قوام بول الناس ولا لونه ولا رائحته . وكان جبريل بن بختيشوع هذا مشهورا بفضل جمة تشرف في المداواة على الوجه المعتمد الحق . حظيا عند الخلفاء . يتبع أسرة عندهم ونال منهم الأموال العظيمة . ولما مرض جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي أيام رضاء الرشيد عليه استدعى جبريل بن بختيشوع هذا لمعالجته وشاء الله أن يبرئه في مدة ثلاثة أيام. ومرة تمطت حظية من حظايا الرشيد فبقيت يدها منبسطة مبسوطة ولم ينفع علاج الأطباء ولا الأدهان . فاستدعى جبريل فاستحضرها وأراد أن يكشف عن ساقها فارتعبت الجارية وحركت يدها ورفعتها . وكان الرشيد يستمع لقوله فيما يأكل ومقدار ما يشرب ومع عهده هيبة عالية حتى قالوا انه كان كل من قصد عملا من الرشيد لا يخرج الى عمله الا بعد أن يمر على جبريل . وقد نال عنده الحظوة لقربه من الرشيد حتى أرادوا أن يقتلوه . وعلى العموم كان طبيب القصر وقد قال فيه أبو نواس :

سألت أخي أبا عيسى وجبريل له عقـــل
فقلت : الراح تعجبني فقال كثيرها قتـــل
فقلت له فقدر لي فقال وقوله فصـــل
وجدت طبائع الانسا ن أربعة هي الأصـــل
فأربعـــة لأربعـــة لكل طبيعـــة رطـــل

وقال له المأمون يوما

أخي طبك ياجبريـــ ل ما يشفي ذوي العلة
غزال قد سبـــا عقلي بلا جـــرم ولا زلة

الايمان بالتنجيم

وأما التنجيم فكان الخلفاء يعتقدون أن للنجوم اثرا في أحداث الكون من موت وحياة وسعادة وشقاء وصحة ومرض وسعة وفقر في الرزق وغير ذلك . وبنوا في أساس الاعتقاد بهذا

وكان من أكبر من أشاعه بينهم نسبتهم الى كثير من التنبؤ بالحوادث ، وربما كان من أكبر الاسباب في ذلك دعايتهم لانفسهم ، عن طريق التنبؤات . ونسبوا لعلي بن أبي طالب كثيرا من أخبار بني أمية وسقوطهم وظهور بني العباس وغير ذلك من الاحداث استنادا الى قوله : « سلوني قبل أن تفقدوني »

وقد نسبوا اليه تنبؤات بأحداث في الدولة الأموية والدولة العباسية ، ومقتل الحسين ، وخروج عائشة يوم الجمل ، وخروج الأمر من العلويين الى العباسيين ، وأحداث السفاح ، وبعض أحداث بني أمية ونحو ذلك . ولكن

يظهر أن أكثرها وضع بعد ظهور الحوادث ثم استشهد به
على أنها من النبوءات

وشاع بين الشيعة لأجل ذلك علم الجفر وهو الذي عرف
فيما بعد الى « الشعوذة » . وسواء صحت عنده الأخبار ،
لم تصح ، فإن الناس والخلفاء والأمراء كانوا يعتقدون فيها
ويبنون أعمالهم عليها . وكتاب الجفر هذا كان أصله أن
هارون بن سعيد العجلي وهو رأس الفرقة المعروفة بالزيدية،
كان له كتاب صغير يعرف بالجفر، يرويه عن جعفر الصادق
وفيه أخبار عما سيقع لأهل البيت على العموم ، ولبعض
الأشخاص منهم على الخصوص . وكان مكتوباً عند جعفر
على جلد ثور صغير . فرواه عنه هارون العجلي وسماه
الجفر . والجفر في اللغة هو الصغير . فصار هذا الاسم
علماً على هذا الكتاب عندهم . وشاع في الناس وتناقلوه
وزادوا عليه . واشتغلوا في ذلك ما سمي بالملاحم وهي
أشعار تروى في أخبار دولة على الخصوص أو دول على
العموم . وأكثرها موضوع .. تروى فيه الحوادث الماضية
صحيحة . ويرجع تاريخها الى ما قبلها للدلالة على النبوءة.
أما ما يدل على المستقبل فغير صحيح غالباً

ويروون أنه عثر في عهد المهدي على كتاب في الجفر يروي
أن مدة حكم المهدي عشر سنوات . وشاع ذلك في الناس،
فلما علم الربيع وزير المهدي قال إن الخليفة المهدي لو علم
ذلك لاغتم ، فاستدعى الوراقين وأمرهم أن يكتبوا الكتاب

وجعلوا بدل العشر أربعين ، حتى يطمئن المهدي في مدة حكمه . وهكذا من باب ظرف الوضع . وبسبب ذلك على ما يظهر لي أن لبعض الناس قدرة على معرفة الغيب ويسمون المنجمين أما عن طريق ما يسمونه الزايرجة بالطلسمات أو بالسحر المغناطيسي أو نحو ذلك . مما لم يكشفه العلم الى اليوم . وهذا معرفة الماضي والحاضر أو قراءة أفكار الانسان

أما معرفة المستقبل فلا أظن أن احدا يعرفه اذ قد استأثر الله بعلمه . والقرآن الكريم يقول على لسان النبي صلى الله عليه وسلم : « لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » . بعكس غيره . ولكن الناس يريدون أن يدعوا طرقا كثيرة من قراءة الكف والودع ونحو ذلك . واعتقدوا بتأثير النجوم . وكان بعض العلماء معتدلين في ذلك . فقد كان بعض الفلاسفة يعتدل في الاعتقاد بالتنجيم ويعد بعضه عملا معقولا . وذلك أن للشمس والقمر والنجوم أحداثا في الدنيا لا شك فيها كأثر الشمس في الفصول الاربعة وأثر القمر في المد والجزر . وأثرهما معا في الرياح والسحاب والرعد والبرق ، ثم لا ينكر أيضا أثر هذه القوة الطبيعية في أبدان الناس وأثر الانسان في نفسه ..

غاية الأمر أن بعض هذه الاحداث ناشئ عن حسابات

بسطه لحركات عدد الكواكب كخسوف القمر وكسوف
الشمس وحساب المد والجزر ونحو ذلك . وبعضها صعب
الاستنتاج لصعوبة المشاهدات التي تبنى عليها احساسا .
فان بعض الاوضاع للنجوم لا تتكرر مرة ثانيـــة في عمر
الانسان الواحد.ومرة واحدة لا تكفي لحكم صحيح .وحساب
الحادثة الواحدة بنسبتها الى البروج كلها وتأثير كل منهـا
حساب عسير ، فقد يحدث خطأ بسيط في حساب برج من
البروج فيخطىء التنبؤ

□

وعلى كل حال ، فقد شاعت بين الناس حوادث التنجيم
والايمان بها . واشتغل المنجمون الناس حتى الخلفاء . وقد
رووا أن المنصور تخير وقتا معينا لوضع الحجر الأساسي
لبناء بغداد وتخير الفاطميون بعد ذلك وقتا مناسبا لوضع
الحجر الأساسي للقاهرة . وليست حادثة المعتصم ببعيـدة
عن الاذهان ، فقد نصح له المنجمون بالخروج الى الحرب ايام
نضج التين والعنب حتى يكون النصر . ولكن الحالة الحربية
اضطرته الى الخروج في غير هـــذا الوقت . فانتصر وقال
أبو تمام في ذلك قصيدته البائية المشهورة

السيف أصدق أنبـاء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

وكان الرشيد يؤمن بهذا التنجيم أحيانا ، ويستمع الى
اخبار المنجمين ، وتنبؤاتهم ، حتى رووا أن منجما يهوديا قال
للرشيد «اني أرى في أحكام النجوم انك ستموت سريعا»

واغتم لذلك اغتماما شديدا وأحضر جعفرا برمكي يسري عنه ، فحضر ووجده كئيبا حزينا . فقال جعفر للمنجم : « أترى أن الخليفة يموت سريعا ؟ » قال : « نعم » . قال له : « وماذا تراه في نفسك ؟ » قال : « أرى عمري طويلا » . قال : « اقتله يا أمير المؤمنين حتى تثبت كذبه » . فقتله ، واستراح الرشيد

⊏

وقد كان هذا التنجيم وسيلة لعلم الفلك ، كما كان تحويل المعادن إلى ذهب سببا في معرفة قوانين الكيمياء الصحيحة . فقد رووا لنا أن محمد بن إبراهيم الفزاري صنع زيجا . ورووا أنه قدم على الخليفة المنصور رجل من الهند عالم بالحساب المعروف بالسند هند في حركات النجوم . وأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية ، وأن يؤلف منه كتاب يتخذه العرب أصلا في حركات الكواكب . وبذلك استفادوا العلم بكثير من التخريف ، وانتهوا به إلى التصحيح والتدقيق

وصل أمر التنجيم إلى الثقة في التنبؤ بالسعادة من ولد في شهر كذا والشقاء من ولد في شهر كذا . وفي اختلاف أخلاق من ولد في بعض الشهور عمن ولد في شهور أخرى ونحو ذلك

ولو كان هذا صحيحا لاطردت النتائج فيمن ولدوا في شهر واحد من سعادة أو شقاء أو سلوك ، مع أنا نجد كثيرا من الفوارق بينهم . ولكن هي صنعة الإنسان يريد أن

تخترق حجب الغيب وتستعين بمخلوقات غريبة لاستطلاع عند الناس والله أعلم

تقدم العلوم

ويسترعي هذه الحقبة والعناصر المحققة أن المسلمين عهر أمر واضح هو تحول العلوم من سكايها البسيطة الدائمة الى قواعد علمية . ويساهم العلماء في ذلك ، كل يريد أن يؤسس علما ويشارك في هذا العمل علماء من العرب كالخليل بن أحمد الفراهيدي ، وعلماء من الفرس كسيبويه وأبي حنيفة ، ومن اليهود كابن الأعرابي وعلماء من المسلمين وعلماء من النصارى . فكانت حركة عربية حقا . فهذا النحو يتحول من معرفة بدائية ومسائل جزئية كالتي يروى عن أبي الأسود الدؤلي إلى علم تام وقواعد منظمة ، كالذي كان من الخليل وتلميذه سيبويه

وهذا الفقه يتحول من مذهب مكون من جمع للحديث واستنتاج منه الى مذهب قياسي منطقي كالذي تشيعه أبو حنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد

وهذه اللغة التي كانت تجمع كلمة فكلمة قد تم جمعها ، وأخذوا يضعون معاجم في موضوعات خاصة كالخيل والإبل ، ثم جاء الخليل بن أحمد هذا ، فوضع بكتابه « العين » أساس المعاجم اللغوية . وهذا الأدب الذي كان يروى قصيدة أو قطعة قطعة ، أخذ يجمع في الكتب المطولة كالمفضليات للضبي ، والأصمعيات للأصمعي ، والنقائض لأبي عبيدة

وهذا النقد الذي كان يعتمد على الذوق الفطري فقط

الكلمه اذا كانت نابية مثل كلمه بورع ـ او ينقد المعنى اذا كان سخيفا ـ كقول القائل :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم الى قطينا

فينقده عبد الملك بأن هـذا يقال لعامل من عماله ، وان الشاعر لو قال لو شاء ساقكم ٠٠ لكان احسن ـ فسبقت الى نقد بقواعد وقوانين كالذي فعل ابن سلام في طبقاته

وهذا التاريخ الذي كان يعتمد على مجرد جمع الاخبار حيثما اتفق ، يؤلف وينظم فيجعل لكل امه موضعا ، ولكل امه حوادث حسب السنين وما جرى فيها منظمه مرتبه

وهذه الانساب التي كانت في الصدور كتبت في السطور ودونت تدوينا منظما كالذي فعل الكلبي في كتابه الجمهرة في الانساب

وهؤلاء رجال المحدثين الذين كان يكتب عنهم كلمه في تعديلهم او تجريحهم كانت سببا في كتب التراجم الواسعه ، يعتمد فيها على الاخبار ومعرفة حياة كل مترجم له ونحو ذلك ، حتى لو قلنا ان كل طائفه من المعلومات انقلبت علما ووضعت في قواعد ، لم نكن بعيدين عن الصواب ٠ فربما كانت مفتتنا في القرون التي أتت بعد ليس الا ترداد لما ذكروا او تعبيرا عنه بلغة العصور المختلفه ، او تفريقا لمجتمع او تجميعا لمتفرق من غير كبير ابتكار

يضاف الى ذلك اختلاف المذاهب والنحل واتخاذها أيضا شـكلا علميا حتى ان المذاهب التي كانت سياسـية كالمرجئة والخوارج وأهل السـنة والشيعه ، انقلبت الى مذاهب دينيه علمية تعلل تعليلا علميا وتحلل تحليلا فلسفيا

٠٠وتعددت المذاهب حسب العقليات ومقدار الثقافة والميول السياسية والدينية

فهذا حر العقل واسع التفكير يذهب مذهب الاعتزال ، وهذا يتقيد بالنص وينهج منهج الرواية والجمع فيكون محدثا . وهذا يحب عليا ويترحم على ابنه الحسين ويعطف بقلبه على من اضطهد من العلويين فيكون شيعيا . وهذا يحب أبا بكر وعمر ويمجد أعمالهما ويفضلهما على علي فيكون سنيا ، وهذا يميل الى منصب وجاه ويتقرب الى الخلفاء بالمذهب فيكون عباسيا . وهذا بدوي لا يحب الرياسة ولا يميل الى التأقلم ومتابعة الظروف فيكون خارجيا ، وهذا يعتنق الاسلام ظاهريا ويتوسع باطنيا ويكره العرب من صميم قلبه ويود رجوع دولة الفرس الى حالتها الاولى ، قبل أن يهزمهم العرب ويأخذوا بلادهم فيكون وثنيا ٠ وهكذا وهكذا ٠٠ من تعدد المذاهب وتنوعها مما ليس له نظير في مجتمع آخر



الأدب والأدباء



الادب والشعراء

أوجدت العوامل التي ذكرناها في الفصل السابق نشاطا عقليا غريبا وتناحرا بين الاديان المختلفة يشبه التناحر على العصبيات المختلفة واخذ العلماء يشرحون انواع الادب ، ويرون أن الادب والنقد يتبعه لبيئات مختلفة .. فجعلها العلماء في العراق كلها صنفا واحدا . فمثلا كان ادب الحجاز غير أدب الشام غير أدب بغداد

كان ادب الحجاز بحكم تنحية الحجازيين عن السياسة في ايام العهد الاموي وبحكم كثرة الثروة وكثرة الفراغ مجالا للترف والنعيم، وبذلك كان رافع لواء ذلك الادب عمر بن أبي ربيعة ، وغزله . ثم ما تبعه من مدرسة تعمل عمله وتقلده

وكان ادب الشام مأثرا سياسيه . اذ كانت دمشق عاصمة الخلفاء يأتيها الناس من كل فج عميق للمديح ، وفيها التناصر السياسي . لهذا كان اغلب الشعر فيها مديحا وسياسة

وكان العراق على حدود البادية . فكان الشعر فيها امتدادا للشعر الجاهلي ، وانشأوا فيها المربد . يتسابقون فيه الى الشعر كعكاظ ويتحلقون حول جرير والفرزدق ، فكان ادبهم من جنس الادب الجاهلي هجاءا وفخرا واعتدادا بالعصبيات ونحو ذلك . فلما تحولت الحاضرة من دمشق الى بغداد في العهد العباسي تغير الادب . فأخذ الادباء العباسيون

يعقوب في بغداد موقف الامويين من دمشق وبالعكس وكل الادب الذي نتج من هذه الاسباب تجد جمعه في العراق بفضل ما جمعه العلماء، وكل ذلك ادب عربي يولاه اسعد

ثم كانت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي حياة جديدة تخالف الحياة في الحجاز والشام والعراق قبل العباسيين . وكان لا بد من زعماء جدد يشعرون بمواجهة الحياة الاجتماعية الجديدة . وهذا ما قام به بشار بن برد وابو نواس واشباههم ، وكما تاثروا بالحياة الاجتماعية تاثروا ايضا بالثقافات المختلفة التي نشأت في عصرهم . فترى شعرا عن الاديرة . وشعرا عن عيد النيروز . وشعرا عن يوم الشعانين . وشعرا عن الازهار الجديدة وغير ذلك . ولما انتشرت زندقة بعض الشباب لبني العباس . انشد ابو نواس شعر الغزل في المذكر استجابة لهذه الدعوة

وحتى الاحزاب الحزبية كان لها ادب خاص ، فقد كان جزء من العراق يعيش فيه الخوارج .. فشعروا شعرا على مذهبهم . ومن قولهم :

يا ايها المادح العباد ليعطى ... ان لله ما بايدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم ... وارج فضل المقسم العواد . .
لا تقل في الجواد ما ليس فيه ... وتسمى البخيل باسم الجواد

وسموا احد شعرائهم شاعر المؤمنين . وشعراء الخليفة العباسي شعراء الكافرين . فشعراء الخوارج يرون الشعر عنوان الدين والاخلاق . بينما يرى شعراء الخلفاء والامراء بامرائهم الفن للحب ويجعلون امامهم الشعر الجاهلي والنزعات الداخلية

كل هذا حسب في العرف نسب . ويعدد المقلدون حسب
هذه المذاهب المختلفة . فكان للعباس بن الاحنف شبيه
عمر بن ابي ربيعة . وابو نواس شبيه الوليد بن يزيد الاموي.
والخوارج الاخيرون يشبهون خوارج الاولين . هكذا ..

التقدم اللغوي

وبلغت اللغة الذروة في عهد الرشيد بسمو الثقافة والحضارة
في عهده . وقد كان هارون خليفة العباسي . والمغدق على العلماء
والشعراء والموسيقيين . ولقد أحدثت علوم العربية في عهده
نهضة جديدة اقترنت باسماء الاصمعي وابي عبيدة وابي
زيد والفراء والكسائي . وهؤلاء جميعا يجدون لغة البدو هي
المثل الاعلى والنموذج الرفيع . وكانوا لذلك يذمون لغة
العامة في خطئهم حتى خرجوا من القراء به لحن بعصر
الرشيد . وانه اعتذر عن ذلك بان اللحن عند سكان المدن
لازم لهم كالاعراب عند اهل البادية

وقد كان يخف الى الخليفة من حين لآخر ويستمع الى
جدلهم .. وكان يقدر علماء اللغة حق قدرها . ويدقق
فيما لا يفهمه . فقد سمع الاصمعي يقول ما لا امسى
عندك ارض . اي لم ينشئ . فما رجع حتى استفسر
عنه . وكان مما جعل زبيدة في الرشيد فصاحتها وبلاغة
منطقها . كالذي روي لها من خطابها للمأمون عند ما قتل
ابنها الامين مما عد خير الكتب وابلغها

وكان الرشيد دقيق الفهم للعربية حتى كان يستطيع ان
يفرق بين ماذا قلت يا فلان علامتك على شيء لا تريده تعني
قلبت علامك . وحين . قال علامة بالسوط على معنى

سافر غلامك . ولكن يعرق بين قولك أنت طلق طلق طالق . وقولك أنت طلق وطلق وطلق ؛ مما يدل على دقة الذوق

وكان العلماء اذا اختلفوا في شيء ، رجعوا الى البدو يستفسرونهم ويحكمون بينهم . وكانوا يصححون كثيرا مما يجري من اللحن على السنة العوام . وقد نسبوا الى الكسائي كتابا في لحن العامة عمله لهرون الرشيد ، وهو وان لم تكن نسبته صحيحة ، فانه يعد أقدم الآثار الأدبية في تنقية اللغة العربية ، وهو يحتوي على نحو ١٠٢ غلطة من الغلطات التي تجري على السنة العوام . وقد نقب نقبة اللغة العربية هذه ذروتها في لغة أبي نواس . نعم . كنت تأتي في شعره بنسج غريبة التصريف كنوله ... واستعماله احيانا جمع المذكر السالم بكسر النون بدل فتحها . واخذ النحاة عليه قوله :

... من كان ومن يكون الا النبي ...

يعدلوا كل من اواخـب بنصب الا النبي . وكثر من ذلك تركه الاعراب احيانا واستعمال صيغ ماضية ... ، وقوله في بعض شعره بأنك بسكون الكاف على الوقف وقوله

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

فاستعمل صغرى وكبرى . على انه فيما يظهر يأتي بهذه الاشياء لا عن انها لحن بل يتعمدها تعمدا استصغارا لقواعد النحو . ولكن في امكانه تجنبها ، ولكنه كان يهزأ بالنحو كما يهزأ بالعرب . وعلى العموم كان من كثرة الاحتكاك بين البدو والحضر في عهد الرشيد ومجادلات العلماء والمكافأة عليها سبحاه

منه ، وما منح من ذوق لغوى دقيق حتى أن الادوار الغنائية التى اختيرت له كانت كلها باللغة الفصحى

وفى عصر الرشيد رويت لنا بعض القوالب الشعبية كالتى تسمى المزدوجة . وهو قالب شعرى تؤلف فيه سائر قصيرات متحدا القافية .. وقد نظم عليه ابو العتاهية ارجوزته المشهورة فى ذات الامثال . قالوا انها تشتمل على اربعة آلاف حكمة ومثل لم يصلنا منها الا جزء صغير ، واختار ابان بن عبد الحميد اللاحقى معاصر ابى العتاهية نفس القالب المطابق للمثنوى الفارسى . عندما نظم كليلة ودمنة وافتتحه بقوله :

هذا كتاب ادب ومحنه   وهو الذى يدعى كليله ودمنه
فيه احتيالات وفيه رشد   وهو كتاب وضعته الهند

وفى عهد الرشيد ظهر شاعر ثالث .. هو بشر بن المعتمر المعتزلى الذى زج به الرشيد فى السجن بعض الوقت لتشيعه . اذ نهج نهجا لم يسبق اليه فى وضعه قصيدتين . قالهما فى الاشادة بحكمة الله المتجسمة فى الحيوان ، وقد رواهما الجاحظ فى كتاب الحيوان ، الى غير ذلك .. كما ظهر فى عصر المأمون المواويل كما سنذكر . . . .

على كل حال اختلطت هذه الثقافات كلها ، وصبت فى بغداد ، وتأثر بهما المسلمون الى حد كبير ، وكثرت الترجمة العلمية فى بغداد فى عصر الرشيد . واختلف الناس فى الاستفادة منها بمقدار عقولهم وظروفهم . هذا يعنى انى

الفرس . وهذا يميل الى الهند . وهذا يميل الى اليونان . وهذا يميل الى الرومان

دروس وتجارب

وبعد هذه المرحلة كان هناك من المستعربين من نبغ في يسمونه كتاب دوائر المعارف مثل الجاحظ وامثاله . وكانت هذه الثقافات سببا كبيرا من اسباب ازدهار الحضارة الاسلامية وحسن سمعة الرشيد . على ان للرشيد تجارب هذه الدروس العربية التي كان يتلقاها دروسا اخرى من النظام الفارسي كان يتلقاها باللغة العربية من يحيى بن خالد البرمكي والفضل بن يحيى . وجعفر وامثالهم . وكان يتلقى معرفته من اليونانية عن جبريل بن بختيشوع طبيبه وفلسفته اذ كان الطب ملونا باللون اليوناني

وكانت هناك ناحية تفوق ذلك كله . وهي تجاربه في الحياة مع كل من يرى في نفسه القدرة . ومع كل من يراه من الجواري المختلفة الاجناس حوله . ومن حروبه المختلفة . ومما كان يشاهده من ابيه المهدي ايام حروبه للزنادقة واضطهاده لهم . وتوجيه التهم اليهم ومحاكمتهم . ومن الايام القاسية التي عاشاها ايام كان اخوه الهادي يريد حرمانه من ولاية العهد وتولية ابنه

□

واذا كانت الحياة كلها دروسا . فقد كانت دروسه كثيرة من كثرة ما لاقى وما شاهد وما سمع . ومن تجاربه بعد

أن نكل بالبرامكة . وتولى هو ما كان بهم من سلطان وما كانوا يحملون من تبعات . وكان له ذوق في الشعر جد شديد . وكان ذواقاً يطرب للشعر فيخلص من البكاء أو يقف من حزن . وإذا كره شاعراً غضب منه غضباً شديداً . وكان له مذهب خاص في الشعر . يقول أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني إن منصوراً النمري ظفر بحظوته عند الرشيد لأنه عرف مذهبه في الشعر . وهو أن يحسن مدحه إياه بنفي الإمامة عن ولد علي والطعن عليهم . وقد تعلم ذلك ممن كان قبله من مدح الرشيد لمروان بن أبي حفصة وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز . فسلك في ذلك مسلك مروان ونحا نحوه وذلك مثل قوله :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم　حطم المناكب كل يوم زحام
ارضوا بما قسم الإله لكم به　ودعوا وراثة كل أصيد حام
أنى يكون وليس ذاك بكائن　لبني البنات وراثة الأعمام

الترجمة في عهد الرشيد

وفي عهد الرشيد . عني العلماء أكثر مما كانوا من قبل بترجمة الكتب . ذلك أنه بدأت بشائر قليلة في الترجمة في عهد المنصور . فكان من جهة ممعوداً يحتاج إلى أطباء ليعالجوه . ومن جهة أخرى كان ميالاً إلى التنجيم من كثرة ما خالط الشيعة . ولا يكاد يعمل عملاً إلا استشار فيه المنجمين .. لذلك عني بالطب والنجوم . وقد كانت مدرسة جنديسابور مشهورة بالطب من عهد كسرى . فاستقدم المنصور أحد أطبائها . وحمله على أن يقيم معهداً ببغداد كمعهد جنديسابور . كان هذا الطبيب يعرف اللغة اليونانية

والسريانية والفارسية والعربية . فلما رأى المنصور قربه نقل له كتبا طبية عن اليونانية عن أصلها باللغة السريانية. وعكف الناس على هذه الكتب . وقد قالوا إن ابن المقفع نقل أيضا من كتب الفرس إلى العربية كتبا في المنطق والطب . كان الفرس قد نقلوها من اليونان

فلما جاء المهدي كان الناس قد فتحوا بعض الفتح في الترجمة بفضل ما وضع في عهد المنصور . ولكنه شغل بحركة الزندقة . لأن المترجمين لم يقتصروا على ترجمة كتب الطب والتنجيم وغيرها ، بل ترجموا أيضا كتب الزنادقة . فلما فشت الزندقة في أيامه ، تفرغ لها وقتل من اعتنقها من جهة . وأمر المتكلمين من جهة أخرى بالرد عليهم ، وخصوصا المعتزلة

وقد كانت رغبة الرشيد أقوى وزمنه أهدأ . وماله أكثر خصوصا وقد توافد على بغداد كثير من العلماء العارفين باللغات من السريان والفرس والهنود والروم . وكان منهم من تعلم اللغة العربية لأنها اللغة الرسمية للدولة . فحملهم على ترجمة الكتب ؛ وقد توسعوا في الترجمة وترجموا غيرها من فروع الفلسفة . . إذ كان الطب والتنجيم يعدان فرعين من فروعها ، بجانب المنطق وما وراء الطبيعة والطبيعة وغير ذلك

وكان الرشيد في حروبه الكثيرة مع البيزنطيين ، يفتح بلادا ومدنا تحتوي كتبا يونانية ورومانية كثيرة ، فلم يكن يحرقها أو يبددها ، بل ينقلها إلى بغداد في عنايته . . من

ذلك انه عثر اثناء حروبه في انقرة وعمورية على كثير من الكتب ، فحملها الى بغداد وامر طبيبه يوحنا ابن ماسويه بترجمتها الى العربية . كما امر الحجاج بن مطر بترجمة كتاب اقليدس في الهندسة . وكانت ترجمته الى العربية هذه لاول مرة . ثم ترجم فيما بعد ترجمة ثانية . وميزوا الاولى بأن اطلقوا عليها الترجمة الهارونية نسبة الى هارون الرشيد

وشاركه العظماء في ذلك . فيحيى بن خالد البرمكي امر ايضا بترجمة كتاب المجسطي ، ثم جاء بعد ذلك المأمون فاستغل ما ترجم قبله وزاد عليه كثيرا . والناس على دين ملوكهم .. فلما رأوا المأمون عني الى ترجمة الكتب وشغف على ترجمتها عن سخاء اتبعوا مذهبه . وقد ساعده على ذلك نضوج الحركة التي بدأت قبله ، كما ساعده ايضا وجود جماعة من احرار الفكر من المعتزلة حوله كأبي الهذيل العلاف والنظام

وقد ابلى بلاء حسنا في هذه الترجمة السريانيون .. فقد كانوا اكثر اتصالا بالفلسفة من قبل العرب . وكانوا قد نقلوا كثيرا من الكتب اليونانية الى اللغة السريانية . وكانوا يعلمون اللغة اليونانية في مدارسهم واكثرها في العراق . فلما انتقل كرسي الخلافة الى بغداد ، ورأوا حاجة المتكلمين بالعربية الى هذا العلم حولوا ما نقلوا من السريانية الى العربية طلبا للرزق ، وحبا في التقرب الى الناطقين بالعربية

حدة مزاج الرشيد

ولقد كان الرشيد مثقفا ثقافة واسعة ، وكان كثير

النفس على الهمة كرم النفس .. ولكنه من ناحية العاطفة كان حاد المزاج . يكون في مجلس وعظ ودين فيبدو ويفرط في البكاء . ويصلي مائة ركعة في اليوم . ويحج ماشيا . ويكون في مجلس غناء وشراب فيتمكن عنه قسوة . ويرضى عن البرامكة فلا حد لرضاه . ويغضب عليهم فلا حد لغضبه . ويعفو حتى ليظن الظان أنه لا يعاقب . ويحلم حتى يعفو في مواضع العقاب . ويغضب فيخاف من حوله من أحدث معه . كالذي رأى أنه لم يعد من حروب الروم حتى بلغه أن نقفور نقض العهد الذي عهده . فخاف وزراؤه من إلقاء الخبر عليه . فدفعوا الشعراء أن يخبروه بالخبر . فقال عبد الله بن يوسف :

نقض الذي أعطيته نقفور ... فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه ... غنم أتاك به الإله كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤيد ... ينصر فيه لواؤك المنصور
فلقد تباشرت الرعية أن أتى ... بالغدر عنه وافد وبشير
ورجت يمينك أن تعجل غزوة ... تشفي النفوس نكالها مذكور
نقفور إنك حين تغدر أن نأى ... عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت ... هبلتك أمك ما ظننت غرور

وقال أبو العتاهية :

نحلف أيدينا لهرون بالرضى ... وأصبح نقفور لهرون ذميا

وقال غيره :

حسب نقفور ثبات الردى عنا ... لم يره نصل الليث قد عنا

فلما علم بذلك عاد من وقته لمحاربته . وهكذا العاطفة الحادة تكون كجو الأعاصير : هدأة في لحظة . وثورة في لحظة . . . .

حظه أكبر من صفاته

وربما كانت شهرته أكبر منه وحظه أكبر من صفاته، ولكنها الدنيا إذا ضحكت على أحد وهبته محاسن غيره. وإذا دبرت عنه سلبته محاسن نفسه. والحق أن العشرة الأولى من الخلفاء العباسيين كانوا كلهم عظماء إذا استثنينا الأمين وكان كل منهم منفرداً في تأسيس الدولة العباسية ورفع شأنها.. ولكن لم ينل أحد من الحظ ما نال الرشيد. وحتى الأمين لا نستطيع أن نصدق كل ما روي عن بلاهته وغفلته. فقد وضع عليه القصاصون حكايات كثيرة لا تتفق مع ترشيحه للخلافة في ذلك العصر... مع تربيته تربية دقيقة رباه بها الرشيد

ولكن المؤرخين دائماً مولعون بالاستهانة بمن سقط في الميدان، وإعلاء شأن من نجح فيه... ولو كان الأمين قد تغلب على المأمون. لانعكست الآية من عصر إلى عصر.. خصوصاً وأن التاريخ الأول للأمين وضع في عهد خصمه المأمون وأشياعه بعد ذلك



مأساة البرامكة



البرامكة

وقد حفل عهد الخلافة من الرشيد في وقت عهده بالبرامكة فكان يرجع إليهم في كل أمر، ويحملون المسئوليات في كل شأن.. واتسع سلطانهم وعلا شأنهم، وقصدهم جميع الشعراء بالمدائح. وكانوا من حسن السياسة ما جعلهم أهل الرعية. وكان من هذه الأسرة ما يجد به صنيع ما غمرهم من أموال

والبرامكة هؤلاء ينتسبون إلى برمك. وبرمك هذا كان كاهن بيت النار في مدينة بلخ المسمى النوبهار. وهو معبد المدينة الزرادشتية. وكانت هذه الديانة مملوءة بالطقوس المعقدة وبالسحر وبالأسرار. فلما انتقلوا إلى الإسلام لم تخل صدورهم من آثار هذه العقيدة

ولوقوفهم على أسلوب الفارسية الدقيقة. خدموا المدنية الإسلامية خدمة كبرى عن طريق النقل ولهم من كتب الفرس القديمة وعاداتهم وتقاليدهم. كالتي نقلها الجاحظ في كتاب التاج

ووضعوا أيديهم على مرافق الدولة كلها.. حتى كان من شأنهم إذا أرادوا أن يتصرفوا في شيء منه. وحدوده تحت أيديهم. وإذا أراد الرشيد وقصد أن يتصرف رجع في ذلك إليهم. وكان أول من ظهر منهم في الإسلام خالد البرمكي. وعلا شأنهم في عهد الرشيد على يد يحيى بن خالد

ثم كان أن دخل فى القصر عدوهم اللدود الفضل بن الربيع . وقد جهدت الخيزران فى ابعاده عن القصر . وهو رجل نشأ على الدس واعمال الجيبة .. وورث الدس عن ابيه الربيع ، فقد كان الربيع سببا فى أن يقتل المنصور ابا أيوب المورياني . وقد جاء الفضل فوجد البرامكة قد وضعوا ايديهم على كل شيء فى الدولة

فكيف الخلاص منهم ، والرشيد نفسه خاضع لارادتهم ؟ ولكن لا بأس .. فليملأ الفضل الحسد فى اعصاب الرشيد عليهم . وكان الفضل شديد الكبر شديد الغيرة من البرامكة، لا يبلغ مبلغهم فى علم ولا نبل ولا فضل .. فحسدهم وتمنى زوال نعمتهم . فكان يوما يدس الى الرشيد أن البرامكة يطمعون للوصول للخلافة . ويوما يدس اليه أن البرامكة ملاحدة وثنيون ، يحنون الى دين آبائهم الاقدمين بدليل أن قصورهم فيها مخابىء تحت الارض ، تحوى الشعائر القديمة الزرادشتية فهم يتعبدون فيها خفية عن الناس . ويوما يحذره من البرامكة بانهم يؤيدون العلويين سرا ويودون نقل الخلافة اليهم . ويوما يوعز الى مغن أن يغنى الرشيد بهذين البيتين :

ليت هندا انجزتنا ما تعد   وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

ويوما يوعز الى من يرسل اليه قصيدة من غير توقيع يقول فيها :

هذا ابو يحيى قد غدا مالكا   مثلك ما بينكما حد
امرك مردود الى امره   وامره ليس له رد

وهكذا وهكذا من اساليبه الخفية المريرة تعاونه على ذلك السيدة زبيدة زوجة الرشيد باحدى يديها فى اللبس مع زوجها ، والطعن على البرامكة . وقد كانت تكرههم وتود زوال سلطتهم حبا فى الرشيد ورجوع السلطة اليه واليها

نكبة البرامكة

فلما اعتزم الرشيد ان ينكب البرامكة . كان قد قرر بعد طول التفكير ان لا يظهر ذلك لأحد .. فدعى جعفر بن يحيى كالمعتاد وسلم عليه . ورد السلام احسن رد ورحب به ، وضحك فى وجهه ، واجلسه فى مرتبته . وكانت مرتبته اقرب المراتب الى امير المؤمنين ثم حدثه وضاحكه . فأخرج جعفر الكتب الواردة عليه من النواحى فقرأها عليه واخذ راى الرشيد فيها وقضى حوائج الناس . ثم استأذنه جعفر فى الخروج الى خراسان فى يومه هذا . فدعا الرشيد بالمنجم كالعادة . فقال المنجم : هذا يوم نحس . وهذه ساعة نحس ، ولا يبعد ان يكون الرشيد اتفق مع المنجم على ذلك لقصده من السفر

ومع ذلك . فكان جعفر يعلم ايضا شيئا من التنجيم ، فاخذ الاسطرلاب من يد المنجم . وقام وحسب النجوم ورآها حقا ساعة نحس . ثم قام وانصرف الى منزله . والناس والقواد والخاصة والعامة يعظمونه من كل جانب الى ان وصل الى قصره فى حشد عظيم . فلم يستقر به المجلس حتى بعث اليه الرشيد مسرورا الخادم ، وقال له : « امض الى جعفر وائتنى به الساعة . وقل له وردت كتب من

خراسان والخلعة تلبس عليه . فإذا دخل الباب الأول
فأوقف الجند . وإذا دخل الباب الثاني فأوقف الغلمان .
وإذا دخل الباب الثالث فلا تدع أحداً يدخل معه من غلمانه .
بل يدخل هو وحده . فإذا دخل صحن الدار فمل به إلى
القبة التركية . ثم اضرب عنقه ، وائتني برأسه

ولا توقف أحداً من خلق الله على ما أمرتك به . ولا تراجعني
في أمره . وإن لم تفعل أمرت من يضرب عنقك » . فمضى
مسرور واستأذن على جعفر ودخل عليه وقد نزع ثيابه ليستريح . فقال له : « يا سيدي ، أجب أمير المؤمنين » .
فارتاع ، وقال : « ويلك يا مسرور . أنا خرجت من عنده في
هذه الساعة فما الخبر ؟ » . قال : « لا أدري ، وردت كتب من
خراسان تحتاج إلى النظر السريع » . فطابت نفسه ، وقام
إلى ثيابه فلبسها وتقلد بسيفه وذهب معه .. وفي نفسه بعض
الشك

فلما دخل من الباب الأول أوقف مسرور الجند . وفي
الباب الثاني أوقف الغلمان . ثم مر من الباب الثالث
ولم ير أحداً من غلمانه ، فندم على ركوبه وراوده الخوف
في نفسه . ودخل القبة . فقال لمسرور : « ما الخبر ؟ » .
قال له : « قد أمرني أمير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك
إليه الساعة » . فبكى جعفر وجعل يقبل يدي مسرور ويقول :
« قد علمت إكرامي لك دون جميع الغلمان ، وأنت تعرف
موضعي ومحلي من أمير المؤمنين . فلعل أمير المؤمنين أن يكون
قد بلغه عني باطل فدعني أذهب على وجهي » . فقال : « لا سبيل
إلى ذلك » . قال : « فاحملني إليه وأوقفني بين يديه . فلعله



وقال مسرور لجعفر : « قد أمرني أمير المؤمنين بضرب عنقك ... »

اذا وقع بطرد على ان تدركه الرحمة فيصفح عنى » . قال :
« لا سبيل الى ذلك ابدا » . قال : « فوقف عنى ساعة
وارجع اليه وقل له : قد فرغت مما امرتنى به » فقبل
منه ذلك بعد ان حل سيفه ومنطقته فاخذهما . ومضى
مسرور ووقف بين يدى الرشيد . فرآه غضب اشد الغضب .
فلما رآه من قبلهما : « ماذا فعلت بامر جعفر ؟ » . قال
« يا امير المؤمنين . انفذت امرك فيه » . قال الرشيد :
« فاين راسه ؟ » . قال : « فى القبة » . قال : « فاتنى
براسه الساعة »

فرجع مسرور وجعفر يصلى فسل سيفه الذى اخذه
منه ، وضرب عنقه ، واخذ راسه بلحيته وطرحه بين يدى
امير المؤمنين . فتنفس الصعداء لانه انفذ تدبيره الذى
احكمه . وبكى بكاء شديدا على الصداقة الوثيقة التى كانت
بينهم . وجعل ينكت الارض . وقبض على ابيه واخيه
وجميع اولاد البرامكه ، وغلمانهم ومواليهم . واستباح
ما عندهم ووجه مسرورا الى العسكر فاخذ جميع ما فيه
من مضارب وخيام وسلاح ، وقد احصوا من قبضه الرشيد
من غلمانهم ومواليهم نحو الف انسان . وامر ان لا يرجع
احد من صنائعه الى وطنه خوف ان ينشبوا ثورة ، وشتت
شمل من بقى فى البلاد

وأتى بصبيين كانا ولدى جعفر وكانا حسنين جميلين .
فاستنطقهما فوجدهما فصيحين يتكلمان بلهجة مدنية جميلة ،
وبطلاقة فصاحة هاشمية . ثم امر بضرب عنقهما ، وامر
ان لا تذكر البرامكه فى مجلسه . ولا يسعف بمن بقى منهم

في بغداد . ولكن زبيدة والفضل بن الربيع وغيرهما ، لم يطمئنوا الى ذلك ويحيى باق والفضل يعيش . فاذا خرجا من السجن ، فربما دبرا الانتقام ممن كان السبب . فدسوا ـ وخصوصا زبيدة ـ ورقة تحت مصلى الرشيد وفيها مدح للرشيد على عمله مع البرامكة ، وتحريض على المضي في هذه السبيل الى آخرها . فشدد على يحيى وكان شيخا كبيرا وزاد في حديده واغلاله . واحضر الفضل وضربه سوطا حتى كاد ان يهلكه

وتذكر يحيى مرة صلته القديمة بالرشيد فكتب اليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. الى امير المؤمنين ، ونسل المهديين ، وامام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين . من عبد اسلمته ذنوبه واوبقته عيوبه . وخذله شقيقه . ورفضه صديقه ، وجنى به الزمان ، واناخ عليه الخذلان ، ونزل به الحدثان .. فصار الى الضيق بعد السعة ، وعالج البؤس بعد الدعة ، وشرب كأس الموت مترعة . وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل بالسهر بعد الكرى

« يا امير المؤمنين .. قد اصابتني مصيبتان الحال والمال . اما المال فمنك ولك . وكان في يدي عارية منك ولا بأس برد العواري الى اهلها . واما المصيبة جعفر فبجرمه وجرائره ، وعاقبته بما استحق من امرك . واما انا فاذكر خدمتي ، وارحم ضعفي ووهن قوتي . وهب لي رضاك ، فمن مثلي الزلل ومن مثلك الاقالة . ولست اعتذر .. ولكني اقر

وقد رجوت أن تقوم بوصفك ، وتبسط عذري وصدق نيتي ، وتظهر ما عندي ، وفي ذلك ، ما يكتفي به أمير المؤمنين ويرى الحقيقة فيه ويبلغ المراد منه .

فوقع الرشيد على هذا الخطاب بالآية : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » فيئس يحيى وظل في السجن حتى مات . ولمن كتب هذه الرواية يشبه أن يكون موضوعه يبين بعض الحق تمام التمثيل ...

وقد يكون الفضل بن الربيع والرشيد معذورين في بعض ذلك ، لأنهما رأيا أن الدولة العربية تزول شيئاً فشيئاً ، حتى لم يبق للعرب في المملكة سلطان ، وأن السلطة تزيد في الفرس يوماً فيوماً حتى قبض البرامكة على كل ما للدولة من شئون .

قد يضاف إلى ذلك ما روى بعض المؤرخين من أن الرشيد كان لا يستغني عن جعفر والعباسة ، فعقد له عليها حتى يحل اجتماعهما ، وأمر جعفراً أن لا يمسها ، فتعهد له بذلك ، ثم طغى عليهما سلطان الغرام . ولسنا نذهب إلى ما ذهب إليه ابن خلدون من استبعاد هذا . فهذه عاطفة إنسانية يقع فيها الشريف والوضيع والغني والفقير . وكم سمعنا بمثل ذلك في كل العصور ، وسلطان الحب فوق كل سلطان . إنما نستبعد ذلك من ناحية أخرى ، وهي أن هذا لو كان

السبب .. فتك الرشيد بجعفر البرمكي وحده دون يحيى الشيخ ودون اخوة جعفر

فلا بد ان يكون السبب مشتركا ، وليس نجد شيئا مشتركا الا حجرهم لسلطته . خصوصا وان مسرورا الخادم قد سأله بعض الخلفاء بعد ذلك عن حادث جعفر والعباسة . فنفاها نفيا باتا ، ولمح الى ان السبب هو السلطة . وقد كان الرشيد تنازل لهم عن كل سلطان ، فولى جعفر الغرب كله من الانبار الى افريقية . وقلد الفضل المشرق كله من النهروان الى اقصى بلاد الترك . وعين نوابا عنهم من ارادوا .. والناس اذا رأوا السلطان في يد توجهوا اليها بالاستجداء والمديح والملق . وكذلك كان شأن البرامكة .. فكان الشعراء يقفون ببابهم اكثر من الشعراء الذين يقفون على باب الرشيد . وقد مدح البرامكة سماحة وكرما . ووصفهم ابراهيم الموصلي فقال : « اما الفضل فيرضيك فعله ، واما جعفر فيرضيك قوله . واما محمد فيفعل بحسب ما يجد . واما موسى فيفعل ما لا يجد » . كما بهروا الناس بحسن تصنعهم ببلاغتهم وسحر كلامهم ، وحسن توقيعهم حتى تناقلت كتب البلاغة عباراتهم

اشاعات مغرضه

وقد فكر الرشيد طويلا في الايقاع بهم لعظم مكانتهم ، وخوفه من الوثوب عليه من اجلهم . فكان مما احتاط ان يشيع بين الناس كفرهم وزندقتهم ، وانهم يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر . وان عندهم بعض بقايا من الآثار الوثنيه

ونحو ذلك حتى تكرههم العامة . فوعز مثلا الى الاصمعي
ان يقول فيهم ما يحط من شأنهم كالذي قال

اذا ذكر الشرك في مجلس   اضاءت وجوه بني برمك
ولو تليت بينهم آية   اتوا بالاحاديث عن مزدك

واشاع في الناس انهم زنادقة حتى ان يحيى بن خالد لم
ينقل من سحر الى سحر . ان احدى عينيه رمدت واظهر له
الاحمرار فخاف يحيى ان يكون قد ظلمه . او تحن عليه .
فبعث اليه من يسأله . فلما علم انه برمية بالزندقة اطمأن
الى ذلك لانه علم انها دسيسة عليه . وبذلك وامثاله اوجد
الرشيد حول البرامكة جوا مسمما

وربما كان من ذلك ما اشاعه عن علاقة جعفر بالعباسة
وعقد جعفر للرشيد . ان لا يقربها لانه الى ذلك العهد كانت
الغيرة فاشية في الناس . فلما نكل بهم الرشيد لم يثر
الناس وقابلوا الامر بالهدوء

ولولا نشاط الدعاية ضدهم لثار الناس على الرشيد
وفتكوا به ان استطاعوا . وكان يحيى البرمكي يحذر هذه
النتيجة ويعمل على قصر سلطان جعفر . فقال للرشيد غير
مرة : « يا امير المؤمنين . اني اكره مداخل جعفر . ولست
آمن ان ترجع العاقبة على في ذلك منك . فلو عفيته
واقتصرت على ما يتولاه من جسيم اعمالك . لكان احب الى
واولى بفضلك » فلم يقبل الرشيد هذا . وكثيرا ايضا
ما كان يحيى يقول : « الحكم من توقع الشر » ويقول :
« لا ارحام بين الملوك وبين احد » خصوصا وانه علم ان
الرشيد يصغي الى الفضل بن الربيع

وقد أحكم الرشيد قبضته ونشر الجواسيس يتحسسون على من يمدحون البرامكة ويبكون عليهم . ويقطع لسان من سمع شيء عنه ؛ حتى خشي الناس وتركوا الصنيع

وأسدل الستار على هذه القصة الشنعاء .. هذا في نظري أهم سبب لقتل البرامكة وهو غيرة الرشيد من سلطتهم وتحكمهم فيه . وعلو شأنهم على شأنه . أما من عدة من الأسباب فأسباب ثانوية . وقد أولع المؤرخون أن يجعلوا لكل شيء كبير سببا واحدا ؛ فلا بد أن يكون تغضب الرشيد على البرامكة سبب واحد . وإذا كان أبو العلاء المعري في شعره كافرا أحيانا مؤمنا أحيانا . فلا بد أن يكون كافرا فقط أو مؤمنا فقط . فلذلك وقعوا في العبث والأخطاء . وماذا يجري للدنيا لو كانت هناك أسباب مختلفة تنتج سببا واحدا . فقد عمل على إسقاط الدولة الأموية أسباب عديدة . وأبو العلاء يكن بسليقته مؤمنا حينا . كافرا حينا . شأنه في ذلك شأن أكثر العقلاء في حياته يرون من مظاهر الدنيا ما يحملهم على الكفر حينا ويرون منها ما يحملهم على الدين أحيانا . بل حكى لنا الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » أنه آمن أمام العقل أحيانا . وشك أحيانا . وآمن بالكشف أحيانا . فلم لا تكون نكبة البرامكة ناتجة من جملة أسباب لا سبب واحد . أولها : غيرة الرشيد من سلطانهم وثانيها عطفهم على العلويين وثالثها علاقة جعفر بالعباسة إلى غير ذلك . على أنه ما يدرينا لعل الرشيد نشر في الناس علاقة جعفر البرمكي بأخته ليستثير كره الناس لهم ويستخرج غضبهم ومقتهم . وإلا فلو نظرنا إلى المسألة بالعين العادية لم نجد سببا يملأ بالغضب والنقمة ؛

حتى ولو صح . فهو في هذا مأخذ على شعب يألف روحته
ويمضي بها

قاتل الله السياسة

وليس غدر جعفر ، لا يسويه ذلك من قدر الرشيد نفسه
واحنه . إلا أن الرشيد نحور بعربيته .. وجعفراً نحور
بفارسيته . والرشيد نحو ابن عباس وجعفر نحور
بحدة برمك . والإسلام يقول أن أكرمكم عند الله أتقاكم " .
ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . ولو خطف الرشيد
لأخيه ما غبر على مس جعفر . ولكنها السياسة أرادت أن
تكرد السعب في البرامكة فخترعت لها اختراعات متعددة
من مثل هذا الزواج الذي ليس فيه ما يؤخذ عليه . ورميهم
البرامكة بالزندقة ونحو ذلك .. ولكنها خوفاً من أساس أن
يثوروا على الرشيد بنكبة تقوم غدراً في حكمهم كرماء
لعنهم . مخلص لن يتصل بهم .. وقاتل الله السياسة !

▭

على كل حال غضب الرشيد عليهم من كثرة ما سمع من
الفضل بن الربيع ومن زبيدة وأنصارهم . ونوى أن ينكبهم
سنقيمه وسرد تصرفه كما سيجيء . واحد يستشير غيرهم
من مثل يزيد بن مزيد الشيباني وهرثمة بن أعين . فأخذ
الرشيد يتغير قلبه على البرامكة ويستقبح منهم ما كان
يستحسن . فحدثنا خيسري ان الرشيد سمع مرة
صيحة شديدة . فقال : ما هذا ؟ فقيل له يحيى بن خالد

ينظر في أمور المتظلمين . فدعا له الرشيد وقال : « بارك الله فيه وأحسن جزاءه .. فقد خفف عني وحمل الثقل دوني ، وناب منابي » . ثم ذكره ذكرا جميلا . وأمن الحاضرون على قوله وزادوا في ذكر محامده

هذا أيام الرضا .. أما حين تغير عليه فقد ارتفعت شحنة شديدة كذلك . فقد رأى الرشيد ما شهد ، فقيل : يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلمين .. فذمه وسبه ، وقال : « فعل الله به وفعل .. استبد بالأمور دوني وأمضاها على غير رأيي ، وعمل بما أحبه دون محبتي » . فأمن الحاضرون على رأيه وزادوا في ذكر المساوىء

ودخل يحيى مرة حتى على الرشيد وهو خال ، فتحدث قليلا .. فلم يقع له حديث فاستأذن وخرج . فقال الرشيد لبعض الخدم : « الحق بيحيى .. فقل له : خنتني فاتهمتني » . فقال للرسول : « قل له يا أمير المؤمنين ، إذا انقضت المدة كان الحتف في الحيلة .. والله ما انصرفت عن خدمتك إلا تخفيفا عنك »

□

ومما يؤيد رأيي في أن السبب الأكبر في نكبة البرامكة غيرة الرشيد منهم ، وخشيته لاستفحال سلطتهم وأموالهم .. ما رواه الجهشياري من أن يحيى لما أحس من الرشيد تغيره عليه ، ركب إلى صديق له من الهاشميين . فشاوره في هذا الموقف . فقال له الهاشمي : ان أمير المؤمنين قد أحب جمع المال وقد كثر ولده .. فأحب أن يجمع لهم الضياع . فلو

نظرت الى ما فى ايدى اصحابك من ضياع واموال فجعلتها لولد امير المؤمنين وتقربت به اليه رجوت لك السلامة

فهذا يدل على ان من اكبر اسباب غضب الرشيد على البرامكة ايضا حسده لهم وطمعه فى اموالهم . . .

والمال مقصد لذاته . وانه مقصد للسلطان والعظمة . . فاذا طمع الرشيد فى مالهم فطمعه فى سلطانهم اشد . وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه . خصوصا وان الرشيد قد كبر وفهم المسئولية وقدر عيبه فأراد ان يزحزحهم عن سلطانهم ويحل محلهم

وقد اخذ الرشيد من كل ما فكر وشاور فقضى على البرامكة قضاء شنيعا . فقتل بعضهم وسجن بعضهم الى ان يموت . وقتل من تولاهم من الشعراء ومن كان يقف بابهم . وبهذا انتهت دولة البرامكة . واسترد الرشيد سلطانه وعاد الى نفسه سلطتهم وعظمتهم

الناس قسمان !

والناس فى كل زمان ومكان ينقسمون الى قسمين : قسم وهم الذين يميلون مع الريح كيف تميل ، لهم قدرة على التشكل من كل لون . فهم يتجهون معها كيفما هبت من ناحية . لا بأس ان يتجهوا فى الصباح اتجاها وفى المساء اتجاها آخر مناقضا . لا يحركهم الا رغبتهم لمصلحتهم الشخصية . فاذا قال رئيسهم سود قالوا اسود . . واذا قال ابيض قالوا ابيض لا عقيدة تثمر . ولا تحدهم اخلاق . وقسم . وهو الاقل . وقف ثابت على مبدأ . . يتحمل العذاب

في نفس شانئه . ليس عداء للمال ولكنه عداء للضمير

وقد كان هذا شأن الناس مع البرامكة .. فمنهم من جحد فضلهم وانقلب عليهم ، بمجرد أن أحسوا غضب الرشيد عليهم أو تملقا للفضل بن الربيع لأنه كان يتوقع انتصاره كالذي يقول :

قل للخليفة ذي الصنـ ... ـيع والعطايا الفاشيه
وابن الخلائف من قريـ ... ـش والملوك العاليه
راس الأمور وخير من ... ساس الأمور الماضيه
إن البرامكة الذيـ ... ـن رموا لديك بداهيه
عمتهم لك سخطة ... لم تبق منهم باقيه
فكأنهم مما بهم ... أعجاز نخل خاويه
صفر الوجوه عليهم ... خلع المذلة باديه
مستضعفون مطردو ... ن بكل أرض قاصيه
ومنازل كانوا بها ... فوق المنازل عاليه
أضحوا وكل مناهم ... منك الرضا والعافيه

وكالذي يقول على لسان الرشيد :

يا آل برمك إنكم ... كنتم ملوكا عاتيه
فعصيتم وطغيتم ... وكفرتم نعمائيه
أجرى القضاء عليكم ... ما جئتموه علانيه
من ترك نصح إمامكم ... عند الأمور البادية

أما الآخرون فكالذي يقول :

إن البرامكة الكرام تعلموا
فعل الكرام فعلموه الناسا

كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنوا
لم يهدموا مما بنوه اساسا
واذا هم صنعوا الصنائع فى الورى
جعلوا لها طول البقاء لباسا

ومن هذا القسم ايضا ما روى عن ابى زكار الاعمى ، وكان شاعرا مغنيا . وقد ذكروا انه كان منقطعا للبرامكة يسمر معهم ويغنيهم .. وكم بكى على مصرعهم بعد موتهم . وقد روى الاعمى انه لما امر الرشيد بقتل جعفر بن يحيى ، دخل عليه مسرور الخادم فوجد عنده ابا زكار الاعمى وكان يغنيه بالابيات الآتية :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق او يغادى
وكل ذخيرة لا بد يوما وان بقيت تصير الى نفاد
ولو يفدى من الحدثان شىء فديتك بالطريف وبالتلاد

فلما اراد ان يقتل جعفر قال له ابو زكار : « نشدتك الله الا الحقتنى به » . فقال له مسرور « وما رغبتك فى ذلك ؟ » . فقال : « انه اغنانى عن سواه باحسانه فما احب ان ابقى بعده » . وحكى مسرور ذلك للرشيد فقال : « هذا رجل فيه مصطنع ، فاضممه اليك فانظر ما كان يجريه عليه جعفر فأتممه له » . وهى رواية تختلف بعض الشىء الرواية السابقة فى مقتل جعفر

كما كان من الاوفياء كثير من الصالحين والشعراء . فيروون انه لما بلغ سفيان بن عيينة الامام المشهور خبر جعفر وقتله وما نزل بالبرامكة ، حول وجهه الى القبلة وقال : « اللهم انه كفانى مؤنه الدنيا ، فاكفه مؤنه الآخرة » .

ورثاهم كثير من الشعراء ، فقال الرقاشي :

هدأ الخالون من شجو فناموا

وعيني لم يلامسها منام

وما سهرى لأني مستهام

اذا ارق المحب المستهام

ولكن الحوادث ارقتني

فلي سهر اذا هجد النيام

اصبت بسادة كانوا نجوما

بهم نسقى اذا انقطع الغمام

على المعروف والدنيا جميعا

لدولة آل برمك السلام

فلم ار قبل قتلك يا ابن يحيى

حساما فله السيف الحسام

اما والله لولا خوف واش

وعين للخليفة لا تنام

لطفنا حول جذعك واستلمنا

كما للناس بالحجر استلام

وقال دعبل الخزاعي :

ولما رايت السيف صبح جعفرا

ونادى مناد للخليفة يا يحيى

بكيت على الدنيا وايقنت انما

قصارى الفتى فيها مفارقة الدنيا

وقال صالح بن طريف :

يا بني برمك واهاً لكم ولأيامكم المقبلة
كانت الدنيا عروساً بكم وهي اليوم ثكول أرملة

▭

وقد صودرت أموالهم وأصبح من لم يقتل منهم يستجدي وشوهدت أم جعفر تستجدي في يوم الأضحى فسألها عن حالها ، فقالت : « والله لقد جاءني يوم مثل هذا وعندي اربعمائة وصيفة وأنا استقلهن ومع الذبائح الكثيرة وأوزع اللحوم . واليوم لا أملك الا جلدين أفرش أحدهما وألتحف بالآخر ، وهكذا تعامل الأيام ! »

وكان للبرامكة حفيد اشتهر بالشعر والظرف يلقب جحظة البرمكي . وهو أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى البرمكي . وكان يستجدي الأمراء بعد أن كان الشعراء يستجدون آباءه . ويعبر بالشعر عن آلامهم ويبكيهم على ما فعلت الدنيا بهم كقوله :

انا ابن اناس مول الناس جودهم
فأضحوا حديثا للنوال المشهر
فلم يخل من احسانهم لفظ مخبر
ولم يخل من تقريظهم بطن دفتر

وقوله :

اصبحت بين معاشر هجروا الندى
وتقبلوا الأخلاق من أسلافهم
قوم أحاول نيلهم فكأنما
حاولت نتف الشعر من آنافهم

هات اسقنيها بالكبير وغنني
ذهب الذين يعاش في أكنافهم

▭

واشتد الرشيد على البرامكة شدة ليس فيها تسامح ولا لين ولا كرم، فقد نهى عن ذكر اسمهم وعن وقوف الشعراء ببابهم و مقابرهم وعن رثائهم . ولعل عذره في ذلك أن البرامكة كانوا قبضوا على زمام كل الأمور واصطنعوا كثيرا من الشعراء والقصاص . وكان لهم أنصار من الفرس يأتمرون بأمرهم و يسمعون نصحهم و يعرفون قربهم . فعل هذا كله بسبب ثورة تطيح بعرش الخلافة منه

ومن أجل ذلك أيضا خشي أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني . ومع هذا نبع من بعض الناس الوفاء حتى عرضوا أنفسهم للقتل من حسن ما فعل البرامكة معهم

مآثر البرامكة

ومن ذلك ما يروى أن بعض الحرس وجد إنسانا واقفا في بعض الخرابات وفي يده رثاء للبرامكة ، فأخذ الحارس الرجل وأتى به الرشيد . فقال له : «أما سمعت تحريمي لرثائهم ؟ » . فقال الرجل : « إن أذنت لي يا أمير المؤمنين في حكايته حتى حكيتها ثم بعد ذلك أنت ورأيك » . فقال : « قل » . قال : « كنت من أصغر كتاب يحيى بن خالد وأرقهم حالا » . فقال لي يحيى : « أريد أن تضيفني في دارك يوما ! » . فقلت : « يا مولانا ، أنا دون ذلك !.. فداري لا تصلح لهذا » .

قال يحيى: «لا بد من ذلك». قلت: «فإن كان لا بد فأمهلني مدة حتى أصلح من شأني ومنزلي ثم بعد ذلك أنت وربك». قال: «كم أمهلك؟». قلت: «سنة». قال: «كثير». قلت: «شهور». قال: «نعم».

فمضيت وشرعت في إصلاح المنزل وتهيئة أسباب الدعوة، فلما تهيأت أعلمت الوزير بذلك. فقال: «نحن غداً عندك». فمضيت وبت في الطعام والشراب وما يحتاج إليه. فحضر الوزير في غده ومعه ابناه جعفر والفضل وعدة يسيرة من خواصه وأتباعه. فنزل عن دابته، وقال: «يا فلان أنا جائع فعجل بشيء». وقال لي الفضل ابنه: «الوزير يحب الفراريج المشوية فعجل منها ما حضر». فدخلت وأحضرت منه شيئاً فأكل الوزير، ثم قام يمشي وقال: «يا فلان فرجنا في دارك»

فقلت: «يا مولانا، هذه داري ليس لي غيرها» قال: «بل لك غيرها». قلت: «والله ما أملك سواها» فقال الوزير: «هاتوا بناء». فلما حضر قال له: «افتح في هذا الحائط باباً». فمضى ليفتح. فقلت: «يا مولانا كيف يجوز أن يفتح باب إلى بيوت الجيران والله أوصى بحفظ الجار؟» قال: «لا بأس في ذلك». ثم فتح الباب فقام الوزير وابناه فدخلوا فيه وأنا معهم فخرجوا منها إلى بستان حسن كثير الأشجار والماء يتدفق فيه، وبه من المقاعد والمساكن ما يروق كل ناظر، وفيه من الأثاث والفرش والخدم والجواري كل جميل بديع. فقال: «هذا المنزل وجميع ما فيه لك!»

فقبلت يده ودعوت له . فقال لابنه جعفر : « يا بني هذا منزل وعيال ، فلا بد من أن يكون له » فقال جعفر : « قد أعطيته الضيعة الفلانية بما فيها . وسأكتب بذلك كتابها » والتفت إلى الفضل وقال له : « يا بني فمر الآن إلى أن يدخل دخل هذه الضيعة من الذي ينفق ؟ » فقال الفضل : « على عشرة آلاف دينار أحملها إليه » . فقال : « فعجلا له ما قلتما »

فكتب لي جعفر الضيعة . وحمل الفضل المال إلى داري وارتفعت حالي وكسبت بعد ذلك معه مالا فضلا أن أعلق فيه إلى اليوم . فوالله يا أمير المؤمنين ما أجد فرصة أتمكن من الثناء عليهم والدعاء لهم إلا انتهزتها مكافأة لهم على إحسانهم ولن أقدر على مكافأتهم . فإن كنت قاتلي على ذلك فافعل » .
فرق الرشيد لذلك وأطلقه

قسوة الترك

ولما نكب الناس بالبرامكة وعاش من عاش منهم حتى رأوا سلطان الترك أنشدوا قول شاعر

رب يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه

فإن شدة الأتراك وقسوتهم مكنتهم من أن يقتلوا الخليفة بعد اثنتي عشرة سنة من سلطانهم

وقد أكثر الترك من مصادرة الناس لأموالهم .. وكان من مصائب الرجل أن يكون غنيا . فقد صادروا الكتاب ، وصادروا الأمراء الكبار . وأخيرا تجرأوا فصادروا أم الخليفة

المتوكل تكره أحوالها حتى اضطرت أن تهرب الى مكة وكانت تدعو وهي في مكة على التركي الذي سلبها أموالها، وهو صالح بن وصيف التركي، وتقول: «اللهم اخز صالحا كما هتك ستري وقتل ولدي وشتت شملي وأخذ مالي وغربني عن بلدي». مما لم يفعله ولا بعضا منه الفرس في أيام سلطانهم حتى أن البحتري لما سخط بعد قتل المتوكل خرج هائما على وجهه الى ايوان كسرى، وفي ذلك إشارة الى تعصبه ضد حكم الفرس على حكم الترك، وقال قصيدته السينية المشهورة يمدح فيها الفرس ويشيد بقومه، ولكن لهم فضلا على العرب شدوا من ملكهم ووحدوا دولتهم، مع أنه ليس من جنسهم، وعلى العكس من ذلك كان الترك، وأشار البحتري الى ذلك كما يقول انه كان يألف الأشراف من كل جنس، ويحب الأصول من كل قوم فيقول

ذاك عندي وليست الدار داري

باقتراب منها ولا الجنس جنسي

غير نعمى لأهلها عند أهلي

غرسوا من ذكائها خير غرس

أيدوا ملكنا وشدوا قواه

بكماة تحت السنور حمس

وأراني من بعد أكلف بالاشرا

ف طرا من كل سنخ وإس

وهكذا شهدت دولة سلطة العرب في عهد الأمويين وسلطة الفرس في عهد الدولة العباسية الأولى، وعهد الأتراك في

الدولة العباسية أبدية . وحكم البرامكة الذين نكبهم الرشيد لم يعوض في عدلهم وكرمهم والمحافظة على الخليفة الذين يعملون تحت سلطانه ...

تدهور الدولة العباسية

وقد ذكر أحد المستشرقين أن عهد الرشيد كان مبدأ انحطاط الدولة العباسية ، وقد فكرت في ذلك وأطلت التفكير هل هذا صحيح ؟ وما هو السبب ؟ لأنه لم يذكر سببا . هل لأنه في عهد الرشيد استقلت بلاد المغرب عن المملكة .. ولكن هذا وحده لا يكفي سببا للانهيار ، وإلا كان خروج الأندلس وهي أعظم من المغرب هي بدء الانهيار ... أو يريد انتشار اللهو انتشارا كبيرا كالذي كان عند الرومانيين من أسباب سقوطهم .. وهذا أيضا غير صحيح ، فإن اللهو والترف كان حظ الخلفاء ومن يلتف بهم فقط أما الشعب كله فعليه البأس والفقر حادا . أو يريد تحقيق قول الشاعر

ما طار طير وارتفع ... إلا كما طار وقع

وهذا أيضا غير صحيح لأن عظمة الخلافة في عصر المأمون ، كانت أكبر منها في عهد الرشيد

وإنما السبب الذي يجعل هذا الرأي صحيحا في نظري هو أنه في عهد الرشيد تخلخلت العصبيات وبعثت فيه بذوره .. فالأمويون كانوا متعصبين تعصبا عربيا . فالولاة عرب وكل شيء عربي أما الموالي فهؤلاء خدم الأعراب حتى يظن العربي أن أخاه المولى لا يستحق أن يرث كما يرث ، وكان العربي أحيانا لا يريد أن يصلي وراء الإمام المولى

وفي حكم بني العباس غلبت العصبية الفارسية العرب إلى
سياسة الفرس فكانت النقابة والأعياد وغير ذلك فارسية،
وخفت صوت العرب لأن الدعوة العباسية قامت بأهل
خراسان فخلط العباسيون بهم حملتهم . وجاء البرامكة
فزادوا شدة العصبية قوة . فقد كانوا ينشرون الثقافة
الفارسية ويؤيدون كل ما هو فارسي حتى روي أن الرشيد
مرة أراد أن يهدم إيوان كسرى فارتاع من ذلك البرامكة
.. وقال له يحيى : « لا تهدم بناء دل على فخامة شأن
بانيه الذي سبقه وحدث ملكه » فقال الرشيد : « هذا من
ميلك إلى المجوس ، لابد من هدمه » فقدر للنفقة على هدمه
شيئاً كثيراً ، والرشيد أمر بترك هدمه ، فقال له يحيى :
« لم يكن ينبغي أن تأمر بهدمه ، فإذا أمرت فليس يحسن
أن تظهر عجزاً عن هدم بناء بناه عدوك » . فلم يقبل قوله
ولم يهدمه

فلما نكب البرامكة وكانوا فرساً ضعفت العصبية الفارسية
أيضاً كما ضعفت العرب من قبل . وكان القتال بين الأمين
والمأمون الذي سببه خطأ الرشيد في توليتهما العهد من
بعده سبباً آخر في ضعف العصبيتين .. فقد تعصب العرب
للأمين وتعصب الفرس للمأمون فضعفت العصبيتان معاً
لأن القتال الداخلي يضعف الجانبين المتحاربين . ولذلك لما
جاء المعتصم لم يستطع أن يعتمد على العرب ، ولا على الفرس ،
وأتى بعنصر ثالث هو الأتراك واعتمد عليهم . وقد تعصبوا
لعنصرهم وحاربوا ذلك العرب والفرس جميعاً . وارتفع شأن
العنصر التركي عليهم فتحكموا بالعرب ثم بالفرس ثم تحكموا
بالخلفاء أنفسهم . فمنهم من قتلوه ومنهم من سملوا

عيسى ، وكلهم قد سلبوا سلطته وجردوه من حوله

وبعد ما يصح من أخبار بعد عهد الرشيد أول عهد بدأت فيه عناصر الخطر تهدد [illegible] ويكون كلام المستشرق صحيحا بهذا المعنى [illegible] لأن نكبة نكبة البرامكة ، والأتراك هم الذين تسلموا مقاليد الخلفاء ودولتهم وما زالوا بهم حتى سلبوهم كل سلطة [illegible] حتى انتهت بغزوة التتار

نقطة سوداء

وعلى الجملة [illegible] كانت نكبة البرامكة نقطة سوداء في تاريخ الرشيد ، فقد أعلى البرامكة ثم فتك بهم ، وقد [illegible] الخلافة الشرق والغرب معا [illegible] لأن البرامكة كانوا يحسنون معاملة الرعية ويسوسون كل شؤونها ويعرفون أن الشعراء حتى قيل أن ترى شاعرا لم يقل فيهم شعرا كالذي قاله بعضهم :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة
فلما ولي هرون أشرق نورها

بيمن أمين الله هرون ذي الندى
فهارون واليها ويحيى وزيرها

وقول الآخر :

أتانا بنو الأملاك من أرض برمك
فياطيب أخبار ويا حسن منظر

اذا نزلوا بطحاء مكة أشـــــرقت

بيحيى وذى الفضل بن يحيى وجعفر

فتظلم بغـــداد ويجلو لنـــا الدجى

بمكة ما حجـــوا ثلاثة أقمـــر

فما خلقت الا لجود أكفهـــم

وأقـــدامهم الا لأعـــواد منبر

وقول الآخر

رأيت حتى أتم الله نعمتـــه

عليه يؤتى الذي لم يؤته أحـــد

ينسى الذي كان من معروفه أبدا

الى الرجال ولا ينسى الذي يعد

وقول الآخر :

أجدك هل تدرين ان رب ليـــلة

كأن دجاها من قـــرونك ينشر

صبرت لها حتى تجلت بغـــرة

كغـــرة يحيى حين يذكر جـــعفر

الى كثير من أمثال ذلك

فالنقمة عليهم روعت الناس من تعريض شديد الى تنكيل شديد ، من غير ما ذنب معروف جنوه

وأما الفرس فقد روعهم الحدث لأنه لم يكن في نظرهم عدلا ، فلم يحاكموا نقمة بنقمة ولا ســـمعت أقوالهم ولا عرفت أســـباب النقمة عليهم . ويحلق المطر عن قوم في السماء وضعوا في الحضيض . ومن أين نصـــل الى حدود ترغم .. فنقموا على الرشيد فعلته

والحق أن هذا عيب الحاكم المستبد دائماً فهو عرضة لأن يفعل أقصى الخير وأقصى الشر، وهذه الحالة مما شهرت الرشيد ، فالإنسان العظيم يشتهر بما يأتي من خير وشر. ولكن عيب هؤلاء المؤرخين أنهم يقيسون دائماً زمن الماضي السحيق في القدم بمقياسهم غير مقدرين فروق الزمان والمكان. وبهذه النظرة عابوا على الإسلام مثلاً أمر الرقيق وتعدد الزوجات ونحو ذلك

ولم ينظروا إلى الرقيق قبل الإسلام وما بعد الإسلام ، ولا إلى تعدد الزوجات قبل الإسلام وبعده. كذلك لم ينظروا إلى كل ظروف الرشيد وما يحيط به من شئون عائلية واجتماعية وغير ذلك ، وقد كان الرشيد في أيامه مثالاً للملك الحاكم بأمره .. فيه مزاياه وفيه عيوبه . وما كان لأي رجل من رجال العصر الحاضر أن يفعل غير ما فعل لو عاش في زمنه وتحلى بأخلاقه واحتضنته البيئة التي أحاطت به

فلنأخذ الأمور كما جرت ، ونقيسها بمقياس زمانها لا بمقياس زماننا نحن خصوصاً وأننا لم نسمع من الرشيد حجة فيما فعل ، كما لم نسمع من البرامكة دفاعهم عن أنفسهم . وقد فعل أبو جعفر المنصور مثل ذلك في أبي مسلم الخراساني ، وهو أحد دعاة الدولة العباسية بفضله وفضل أمثاله . وكذلك قتل وزيره أبا أيوب المورياني . ووكل المهدي بمن سماهم الزنادقة وهي أمور خفية جداً

لا يعلمها الا الله والمنجم وكثيرا ما يكون الشخص حرا تتحكم نوع ما تسيطر بدقه ويقضى عليه

نعم ان الخصر لا يبرر الخطأ .. ولكن سبق عندما بينت ان ما فعله الرشيد بالبرامكه هو طبيعه العصر وسمه ذلك الزمان . بل حدث في عصرنا الحاضر امثال ذلك .. فقد نكل ملك فرنسا بالبروتستانت ونكل هتلر باليهود ونحو ذلك كثير

على ان المؤرخين رووا عن الرشيد ندمه على فعلته وضيق صدره مما كان حتى رأوا كل ذلك سببا من اسباب رحيل الرشيد بعد تنقله من امكنه من قصر الخلد ببغداد الى الرقه بالجزيره . بعد نقمته على البرامكه ولا يبرر الهرب من نفسه المنظر الذي كان يراها والمجالس التي كان يجلسها مع جعفر البرمكي ونحو ذلك . يضاف الى سبب انتقاله ثورات الشام الشماليه وحاجته الشديده الى القرب منها لسهولة قمعها

□

ولا شك انه كانت من مزايا البرامكه انهم حملوا عبء الدوله كله عن الرشيد ثم كان عنصرا طيبا لم ينضج بعد . فلم يكن بينهم كان في سن ناضجه يستطيع ان يحمل العبء الكبير الذي حملوه . فقد كان في يدهم مناصب الوزاره ومناصب الجيش الكبرى والاداره فحمل الرشيد كل ذلك

وقد صمم الرشيد على قتل جعفر وسجن يحيى وبقية أولاده ، فصادر أموالهم الكثيرة ولكن بعض مادحيهم أو من يمدحهم بعد نكبتهم إلا القتل . وأصبحت هذه الأسرة أسرة بائسة ذاقت من البؤس والشقاء بمقدار ما ذاقت من النعيم والرفاهية

وتوفي يحيى وهو في السجن .. ولحق به ابنه الفضل

المواليا

وكان مما يؤثر أنه في عهد الرشيد ظهر نوع جديد من الشعر يقال له المواليا ظهر في بغداد بعد الفتك بالبرامكة فقد ذكروا أن الرشيد لما قتل جعفرا البرمكي ، أمر أن لا يرثى بشعر ، فرثته جارية له في شعر على وزن خاص وجعلت تنشدهما وتقول

يا مواليا يا موالي ح فلا كان شعرا ولا كان نثرا وهما

يا دار أين ملوك الارض أين الفرس
أين الذين حموها بالقنا والترس
قالت تراهم رمم تحت الأراضي الدرس
سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

وهذا النوع هو الذي تطور فيما بعد وتطور اسمه من مواليا الى مواويل جمع موال

الثورات في عهد الرشيد

وقد تعددت الثورات في عهد الرشيد لأسباب مختلفة أوقعت الدولة أحيانا في أزمات حرجة ، لولا حزم الرشيد وعمته ورجاله .. منها غيظ الروم من عظمة المملكة الإسلامية وتقويها والاعتصام بدس الدسائس لإضعافها . ومنها حنق الشاميين لدولة الأموية بحزنهم عليها وتعصبهم من الإيقاع بالأمويين . وتمنيهم أن تعود السلطة للعرب . يدل على ما عرف عن الدولة العباسية من غلبة سلطان الفرس عليها .. حتى ليروى أن رجلا من الشاميين خرج في المأمون عند زيارته الشام ، يقول له : انظر لنا كما تنظر إلى الفرس

ومنها الحزب العلوي الذي كان يكره العباسيين أشد كره بعد أن تمتعت العباسيون غنمه ثم تخلوا عنه

وقد ظلوا يحافظون على نسبهم ويتطلعون إلى الحكم . وكلما مات إمام مستتر أو قتل خلفه إمام آخر ينتظر الوقت المناسب

ومنها خروج الخوارج الذين ظلوا من عهد أن تكونوا في عصر علي يحافظون على مذهبهم ويخرجون من حين إلى آخر بدون تحقيق أمانيهم واستيلاء أحد من رجالاتهم على الدولة فيقضي فيها بكتاب الله وسنة رسوله ولو كان عبدا حبشيا لا يرضون عن أمويين ولا عن عباسيين لأنهم في نظرهم كافرون أو على الأقل ظالمون . أسرفوا في الشراب وأسرفوا في النساء والغناء وما إلى ذلك من بدع .. فوجبت إزالتهم عن أمر وتولية من يصلح لهذا الغرض على مبادئهم

ومنها أن بعض البلاد البعيدة رغبت في الاستقلال عن

الخلافة وحكم نفسها بنفسها وعدم الخضوع لسيطرة العباسية عليها الى غير ذلك ..

كل هذا كانت تواجهه الدولة العباسية .. ولكنه وحده ما كان يواجهه الرشيد من حين الى حين ، فما نشبت ثورة وحدثت الا قام بقمعها . وبجانب ذلك كان الرشيد نفسه يريد أن يضعف الروم حتى لا يعتدوا على المسلمين فأنشأ مدينة سماها العواصم للاعداد لغزو الروم منها وكان يدير بها غزوه في الصيف تسمى الصائفة قد يقود جيشها بنفسه فيغنم الغنائم الكثيرة التي كانت تعد بابا كبيرا من أبواب الدخل ، وغزوه في الشتاء تسمى الشاتية ونحو ذلك

فمن النوع الاول مثلا ان ثار أهل الخزر في أيام الرشيد بتحريض من البطريق وعقدوا معهم شبه تحالف وأغاروا على ارمينية وفسدوا في البلاد ، وأعملوا فيهم السيف ونكلوا بالسكان الآمنين على نحو لم يسمع به بعد فاضطر الرشيد أن يبعث اليهم حملات قوية قاتلتهم بالقسوة والرعب فانتصروا عليهم وأخمدوا .. بهم

ومن النوع الثاني ما قام به أهل الشام من ثورات متعددة ، ثورة بعد ثورة ، مما جعل الرشيد ينتقل بعاصمته من بغداد وسكناه في الرقة كما ذكرنا

ومن النوع الثالث ما قام من ثورات علوية تريد الاستيلاء على الخلافة . وقد ظهر في أيام الرشيد الامام موسى الكاظم الذي سمي كاظما لصبره وكظم غيظه ودماثة خلقه ومعاملته

الاساءه بالاحسان ، وكان محبوبا من جميع أهل المدينه ،
فخشى منه الرشيد وأمر بالقبض عليه وأتى به الى بغداد ،
وسممه ابن أخت السندي بن شاهك ..وكانت امرأة فاضلة
تقابل سجنيها بالعطف والاحسان فظل مسجونا حتى
توفي في منزل سجينه وخلفه في امامه الشيعه ابنه علي
الرضا وكان أعلم أهل بيته في الفقه والآداب

ومن النوع الرابع ما ظهر من الوليد بن طريف الشاري
الشيباني ، وقد كان زعيم الخوارج في أيامه وكان شجاعا
فتاكا بقيم بنصيبين والخابور فخرج في خلافة الرشيد في
جيش حاشد فارسل اليه هرون يزيد بن مزيد الشيباني ،
فظهر عليه يزيد وقتله

وكان للوليد هذا أخت تسمى الفارعة تجيد الشعر
، سلكت سبيل الخنساء في مراثيها لصخر وقد رثت أخاها
الوليد في قصيدة من قصائدها بقولها

فياشجر الخابور مالك مورقا
كأنك لم تجزع لموت طريف

فتى لا يحب الزاد الا من التقى
ولا المال الا من قنا وسيوف

حليف الندى ما عاش يرضى به الندى
فان مات لا يرضى الندى بحليف

فقدناك فقدان الشباب وليتنا
فديناك من فتياننا بالوف

وما زال حتى أزهق الموت نفسه
شجى لعدو أو ندى لضعيف

ألا قاتل الله الجثى حيث أضمرت
فتى كان للمعروف غير عيوف

فإن يك أرداه يزيد بن مزيد
فرب زحوف لفها بزحوف

عليك سلام الله وقفا فإنني
أرى الموت وقاعا بكل شريف

وكان الوليد يوم الوقعة ينشد

انا الوليد بن طريف الشاري
قسورة لا يصطلى بناري
جوركم أخرجني من داري

وقد تزعمت الفارعة حركة الثوار بعد مقتل أخيها وتولت القيادة بنفسها ، واشتبكت مع جيش الرشيد في معركتين داميتين حتى هزمها أحد قوادها .. فأمرها ان تلقي السلاح وتعود الى خدرها وكانت وسيمة الطلعة رشيقة القوام أديبة ظريفة ، تحفظ الشعر وتقوله ...

ومن النوع الخامس ان بلاد تلمسان بالمغرب ارادت ان تنفصل عن الدولة العباسية فثارت وخسرت الدولة مبالغ طائلة لاخضاعها وكانت مصر تدفع نحو مائة الف دينار سنويا من ايرادها الخاص لتسد عجز حكومة افريقيا حتى تمكن ابراهيم بن الاغلب من الاتفاق مع الرشيد على تهدئة الثورة وتحمل المبلغ الذي تدفعه مصر ، وقدم اربعين الف دينار سنويا الى حكومة بغداد

ومن النوع السادس ان الرشيد كان يهتم اكبر اهتمام بالروم خصوصا بعد ان اخلوا سنة ١٨٠ بشروط الهدنة

التي كانت ايريني قد عقدتها مع المنصور ، اذ اغاروا على البلاد الاسلامية فبعث اليهم الرشيد من هزمهم واستولى على مدينة لهم تقرب انقرة وعلى انقرة نفسها ، واعاد احتلال قبرص بعد ان خرجت من أيدي المسلمين .. والزم الروم بدفع الجزية وتبادل الأسرى. ولكن نقفور ملك الروم كتب الى الرشيد فيما يرويه مؤرخو المسلمين رسالة غير مؤدبة يقول فيها

« من نقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب

« اما بعد .. فان الملكة التي كانت قبلي اقامتك مقام الرخ، واقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من اموالها ما كنت حقيقا بحمل امثاله اليها. ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي ، فاردد ما حصل قبلك من اموالها ، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك .. والا فالسيف بيننا وبينك »

فغضب الرشيد من هذا الكتاب غضبا شديدا حتى لم يجرؤ احد على النظر اليه من غضبه.. وكتب اليه كتابا غير مؤدب ايضا - والبادي اظلم - يقول فيه

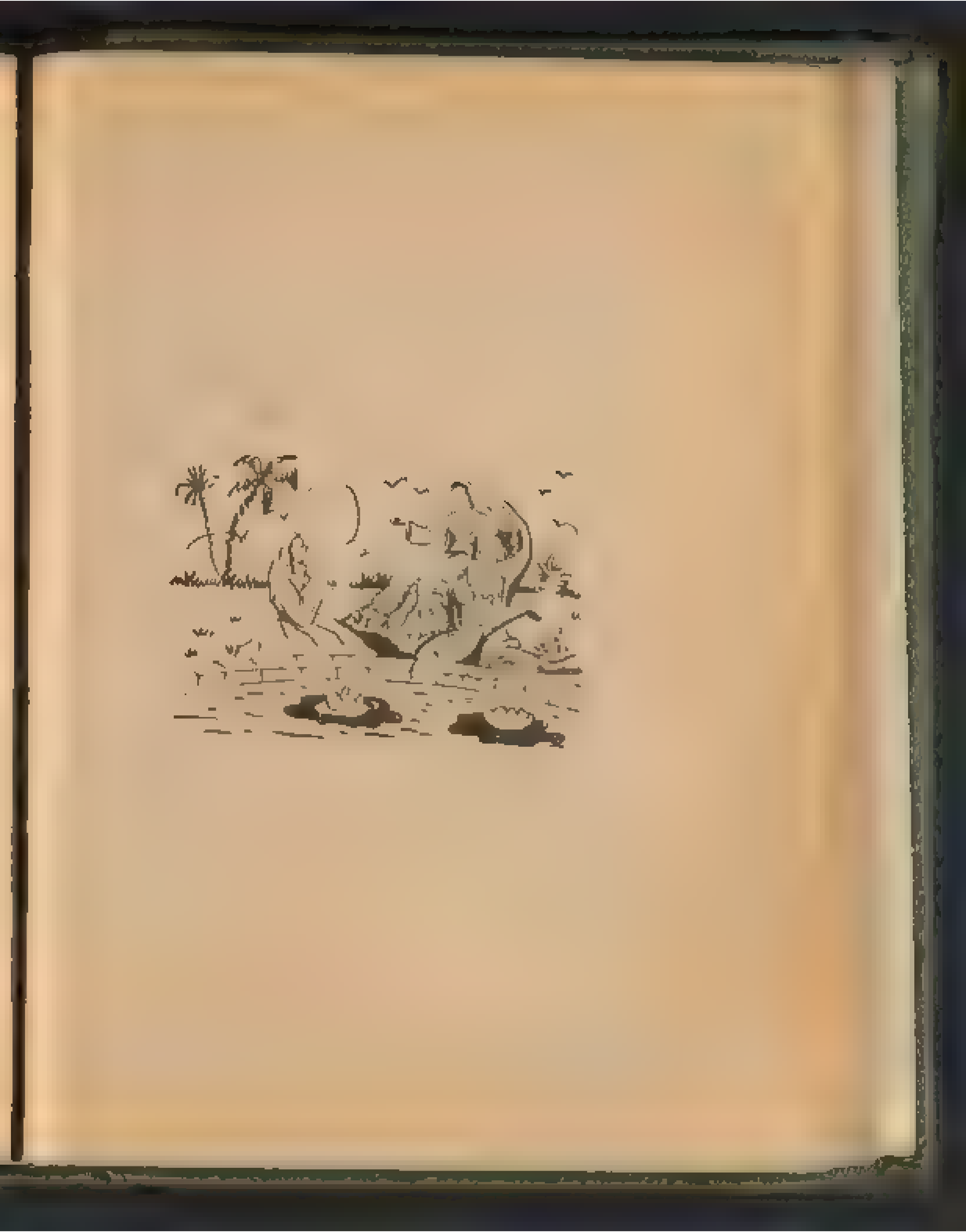
« بسم الله الرحمن الرحيم - من هرون الرشيد الى كلب الروم

« قد قرأت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه »

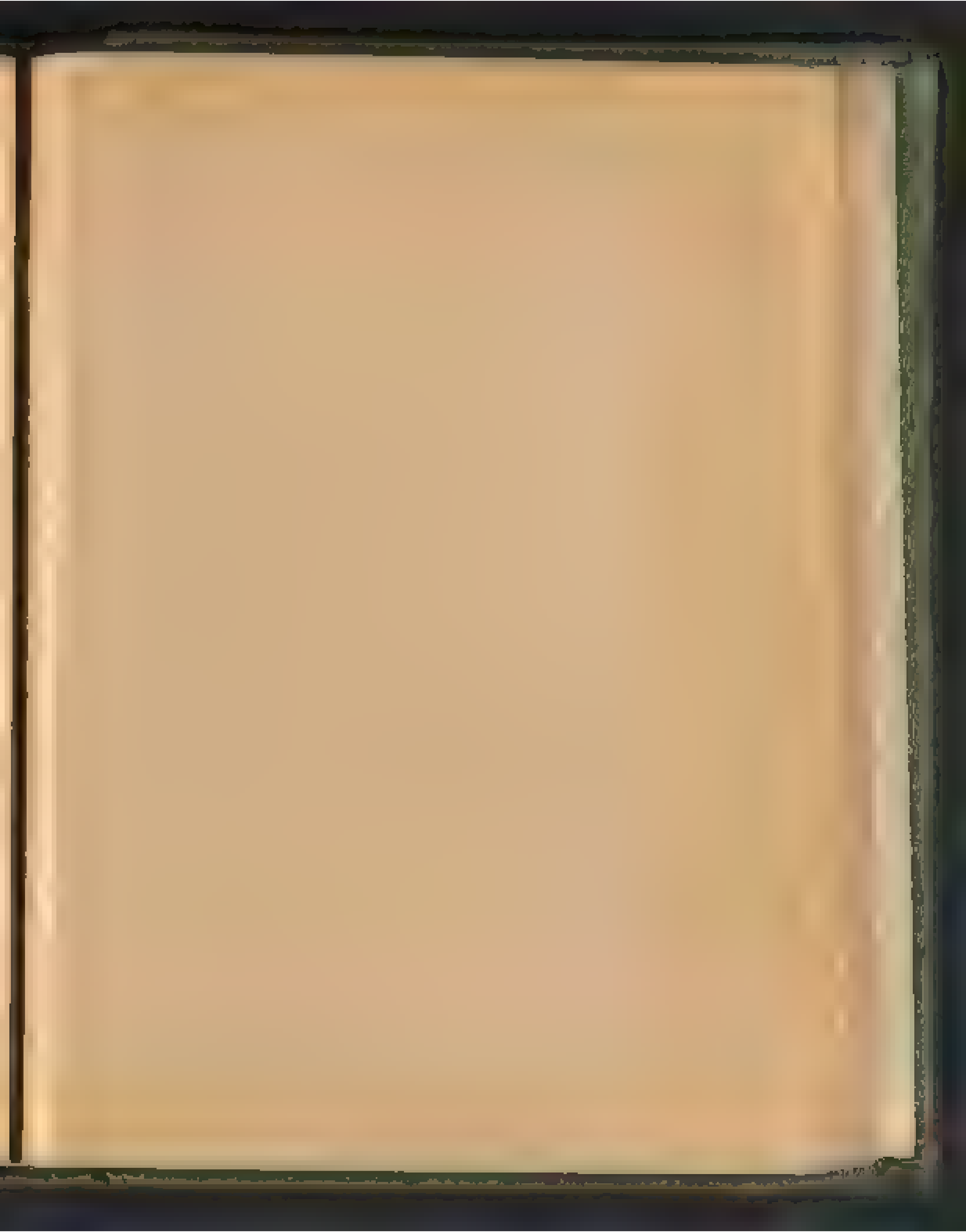
وقد زحف الخليفة بأجناده وشخص بنفسه على رأس جيشه، حتى وصل الى « هرقلة » احدى البلاد البيزنطية ، فدارت بين الفريقين معركة حامية أسفرت عن هزيمة الروم هزيمة منكرة ، وقد تبين من عدة الحروب ان الفنون الحربية عند

المسيحي كانت أرقى منها عند الروم . وتوسل نقفور إلى الرشيد أن يقبل منه جزية أكثر من تلك التي قبلها من إيريني . فأجابه الخليفة إلى ذلك – وقد كانت تنشأ ثورات أخرى منشؤها محاولة إرجاع الدولة العباسية إلى عهد الفرس الماجد الزاخر . وهذا داء قديم

وكثير ممن اتهموا بالزندقة وقتلوا عليها في عهد المهدي كانوا أشخاصا حاولوا مثل هذه المحاولة . وكانت ثورات سياسية .. إنما صبغت بالصبغة الدينية لاستمالة الرأي العام . وقد اتهم البرامكة بمثل هذه التهمة بحادث التهم التي عددناها . وذلك مثل ثورة الخرمية في طبرستان . فقد تحركوا ناحية أذربيجان يدعوهم إلى ذلك العقيدة على ما يظهر ، فوجه إليهم الرشيد عبد الله بن مالك في عشرة آلاف فارس فأسر وسبى حتى أنهى أمرهم



الشعر والغناء



مجالس الرشيد

على كل حال ثم نجده أيضاً يحضرون تلك الحروب ولا الانتصارات . وأما جده ، فمجالس الأدب والعلم ومجالس العلماء

نعم ، قال أبو حاتم : واستطيع أن أضيف سبباً من عندي ، وقد يكون ذلك كذلك ، ولكن لسبب أكثر أصول وأدوم وأنه كان سبب حدوث هذه الأسباب التي ذكرتها من قبل وهي أن الرشيد من حسن حظه أن جاء والمدنية الإسلامية قد بلغت أوج نضوجها ونم نضجها فيما بعد في عهد المأمون . فكانت مدنية عظيمة تفوق مدنية الأوربيين في ذلك العهد . فتدفقت الأموال على بغداد . وازدهرت التجارة بطرق الدنيا . والعلوم والفنون شتى أنواعها مزدهرة . ثم جمع على أحد غير الرشيد ما اجتمع من أعلام ، ومن أمثال [illegible] والرشيد يغدق بغير حساب . ومجالس العلماء يزينها إبراهيم بن المهدي وإسحق النديم وإبراهيم الموصلي ، والنصارى مثل جبرائيل بن بختيشوع يبرزون في الطب ويشرحون كثيراً من الفلسفة اليونانية إذ كان الطب أحد فروعها . وفيهم المنجمون من عهد المنصور نعم العهد لاعتقادهم أن حوادث الدنيا متأثرة بحركات النجوم ، ويشتهر في ذلك اسمان عظيمان هما ماشاء الله اليهودي وأحمد بن محمد

المهدي والهادي . والفقه ينضج في ذلك العهد على يد أبي يوسف ، ومحمد
صاحبي أبي حنيفة .. ويؤلف الكتب على هذا المذهب
وتنتشر في الأمصار ، والنحو ينضج في عصره فيؤلف
الخليل بن أحمد عصري المعجم ويضع أصول اللسان
العربي ويطول تصريف الكلمات ، ويتوسع في
ذلك بعد الكسائي مؤدب الأمين والمأمون ، وسيبويه
نحوي البصرة ، ويضع أبو عبيدة معمر بن المثنى كتابه
في فقه اللغة في أسرارها وكلماتها استعمالها في مواضعها
والحركة بين البدو والحضر حركة قوية شديدة ، يأتي البدو
الى الحضر فيأخذ عنهم الحضريون علمهم وشعرهم وأدبهم
ويرققون أشعارهم ، ويخرج الحضريون الى البدو فيأخذون
عنهم ذلك

وارتقت بلاغة الشعر في مثل علي بن الجهم ، وأبي نواس ،
وأبي العتاهية .. وحتى نستطيع أن نقيس الشعر كما
روينا من مثل عن الذرعة .. حتى اذا أنصفنا حكمنا بأن
الشعر الحضري الذي روي لنا في عهد الرشيد وأمثاله كان
أرقى من الشعر الجاهلي والفرق بينهما كالفرق بين قول
امرىء القيس إذ يقول

يقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

وقول علي بن الجهم

فبتنا جميعا لو تراق زجاجة
من الخمر فيما بيننا لم تسرب

وكان كثير من الشعراء يلازمون الرشيد كالذي حكي عن

أبي العتاهية انه كان لا يذكره في شعر ولا خمر . وكان يستمع الرشيد لشعره ويبكي من مواعظه كقوله

كأن كل نعيـــم أنت ذائقـــه
من لذة العيش يحكي لمعـــة الآل

ومن الناحية الأخرى كان شعر أبي نواس على عكس مذهب أبي العتاهية ، يغزل في المذكر والمؤنث ويمجن ويخمر . فكان يذكر في شعره الجنس والخمر كما يذكر أبو العتاهية في شعره الجنة والنار ، كما في قوله أبو نواس

وليلة طال سهادي بهـــا [illegible] الخمس [illegible] الأوقات

وقوله

هل لك في قهـــوة معتقـــة عتقها الدهر من عهـــد عاد

وقوله :

رب ارتياح وراقب الخمـــر وشربها فنسيت كل الأمر
فكأنما خمـــر ولا قـــدح وكأنما قدح ولا خمـــر

الى كثير من امثال ذلك .

والرشيد يستجيب لنصح ذلك ويبعث عنه . وانغمس الناس في عهد الرشيد في الشراب فتفننوا وأكثروا القول فيه حتى لم يخل شعراء في عهده من ذكره في هذا العصر . وتفننوا فيه فأوجدوا لونا من الشراب من [illegible] وهو خمر ممزوج بالعسل وسموه [illegible] الرومي – وهو الاسفنطي – ولم يذكروا أمر الإسلام إذ يقول : إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون .

ومن أجل الهروب من هذا الأمر أخذوا يتفننـــون في

الاسئلة: ما المراد بالخمر؟ أهو نقيع التمر أو لا تشمله؟
وما القدر الذى يحل والذى يحرم؟ وما النوع الذى يحرم
وما النوع الذى يحل؟

ويصور ابن الامام أن حنيفة كان يتبع عبد الله بن مسعود
فى تحليله لنبيذ التمر والزبيب اذا طبخ او فى شرب قدر
منه لا يسكر. وكذلك نبيذ العسل والتين والتمر

واخذ الشعراء يتفكهون فى شعرهم بحرمة الخمر كالذى
قال:

من ذا يحرم ماء المزن خالطه فى جوف خابية ماء العناقيد
انى لأكره تشديد الرواة لنا فيه، ويعجبنى قول ابن مسعود

وقد اشتهر بينهم أن الفقيه الحجازى يحرم النبيذ والفقيه
العراقى يحلله. ولذلك قال شاعرهم:

رأيه فى السماع رأى الحجاز وهو فى الشرب رأى أهل العراق
ويقول آخر

أباح العراقى النبيذ وشربه وقال حراما ان المدامة والسكر
وقال الحجازى الشرابان واحد فحل لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما وأشربها لا فارق الوازر الوزر

وطائفة أخرى لا يعجبها أن تحلل أو تحرم، فهما أن
يتركوها ركا تاما أو يشربوها جهرا تاما

قال أبو نواس

فان قالوا حرام قل حرام ولكن اللذاذة فى الحرام
ويقول:

الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر
ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

وهكذا أصبح الغناء والخمر أمرين سائغين بين الناس لا يخلو منهما بيت من بيوت العظماء والأغنياء

وتسربت عوائد الفرس والروم والعرب الى الناس .. وكان من ذلك كله أدب غزير في الخمر ووصفها وسقاتها وأوصافهم وعيوبهم ومحاسنهم ، حتى ملأ الأدب العربي وحتى ان الصوفية كابن الفارض وغيره قد سلكوا المسلك في قولهم في الشراب وغزل المذكر وغزل المؤنث وان لم يكن هناك خمر ولا نساء ولا ذكر

ابراهيم الموصلي

ونجحت السهرات الغناء .. جاءت طبقة من المغنين أخذت أصول الغناء عن ابن سريج وابن محرز المكي ، ومعبد ومحمد المدني ، واشترك النساء في الغناء ، وغنين الغناء العربي والفارسي . ووجدت مدارس مختلفة للتلحين وطرائق وقد شجع البرامكة الغناء الفارسي وكان جانب الغناء الرياضة . وهناك القصص الشعبي الذي يحكي أمور الماضيين والحاضرين ويستقصي أحداثه . ولم تقف في التاريخ عند حد الروايات عن القصص ، فقد ركبوا البحر ودونوا الرحلات وأدخلوا في التاريخ ما شاهدوه وما سمعوه وكما اشتهرت بغداد أم الحضارة بهذه الأسماء كانت لكل من دمشق ومصر صورة مصغرة

ولم يكتف الأمر بهذا ، بل أشعروا صدورهم اعتزازا بمدينتهم الى الوفود تأتيهم من الروم وغير الروم ، يعجبون بما يرون من حضارة لا قبل لهم بها ويدعون الى بلادهم

فيتحدثون بما شاهدوا وما سمعوا ويفندون ما يستطيعون تفنيده ، وقد روى التاريخ كلمات كثيرة عن القساوسة والمستشرقين يحضون قومهم على ان يفهموا نفس المسلمين

هذه ، لا الحروب ولا الانتصارات ، هي التي أعلت شان الرشيد في نظر الشرقيين والغربيين ، وخلدت ذكره وأعلت مقامه وجعلته على كل لسان . فقد نقل اليهم كتاب بطليموس وأقليدس وعرفت رياضتها ، ولم تكن دراساتهم بها نظرية بحتة ، بل كانت نظرا عمليا مثل البوصلة البحرية التي مكنتهم من السير في البحار والمهارة في التجارة ، حتى ساروا الى سواحل الهند وجزيرة الملايو ، ووصلوا في بلاد الصين وصارت البصرة ثغرا تجاريا هاما . وكالساعة الدقاقة التي اخترعها العرب ، ووصفوها بأنها كانت اذا جاء موعد الساعة دقت وخرج منها رجال على الخيل بعدد الساعات ، فاذا انتهت الدقات دخل الخيالة

وكان مما خلد الرشيد ، مجالسه الاسبوعية المتعددة . فمجلس غنائه كان عماده ابراهيم الموصلي ، ثم من بعده ابنه اسحاق وزلزل الدفاف وبرسوم الزامر . وابراهيم الموصلي هذا كان زينة مجلس الرشيد واطار الشخصية كما تصوره لنا ألف ليلة وليلة . وهو فارسي الأصل ابا وأما ، رزقه الله حسن الصوت على خير ما يرزق المغنين في جميع العصور . ورزق الى حسن صوته جودة انشائه للشعر وحسن تلحينه يروى عنه انه انشأ ولحن وغنى قوله .

ربما يهوى الاخـــو ... ن والعسل بيبسـم
حتى عـــارب وبدت ... في مهويها النجـوم
ونفس الليل في عـــ ... ـــى كسـوى عقيم
بلى تعصر لنـــــا ... بعثت منهـا الكـروم
أنا بالـــرى مقيــم ... في قـرى الرى أعيـم
ما أرانى عن قرى الـرى ... مدى دهـرى أريـم

وكان من أصل فقير عرب من فرس ونشأ يتسكع في البلاد . وكان في كل بلد طائفة من الشبان الخلعاء لا يسن لهم الى الجد . يقضون حياتهم في شراب ونساء وغناء . وقد شهروا بالمروءة والنجدة خصوصا اذا نزل عليهم ضيف من أمثالهم

وهؤلاء الطائفة تسمى « الفتيان » وهي كالتي نسميها اليوم بالبوهيميين . وذلك قبل أن تتطور كلمة « الفتيان » الى المعنى التركي . فتأخذ شكلا دينيا وتشكل اتحاد عمال معا . وقبل أن تجدها الصوفية في لغتهم فيطلقونه على جماعة الصوفية المتدينين ذوى المروءة

واشتهر ابراهيم بينهم بحسن الصوت فأعجبوا به ، وكان في احدى مراحله بالموصل فسمي « ابراهيم الموصلي » . ثم ذاع ذكره وحسن تطريبه وغنائه ، فاستدعاه الخليفة المهدي . ولكن كان به آفة وهي انه كان لا يكاد ينفك عن ملازمة الفتيان . والمهدي لم يكن يشرب ولا يحب الشرب الا ما كان احتراما لجبريل بن بختيشوع اذ كان لابد ان يشرب . والمهدي لا يستطيع الاستغناء عنه فأباح له أن يشرب هو . فطلب المهدي من ابراهيم الموصلي ألا يشرب فلم

يستطيع . ووجدت عقده في قلب المهدي وهي أن في ابنيه
من وهما الهادي والرشيد ، ويخاف عليهما الانغماس في
الشراب ويخاف عليهما من مخالطة الموصلي ، ويخاف أن
يجتمع عليهما حسن شعر الموصلي وحسن تلحينه وحسن
حداثته مضمنا ذلك كله الى شباب الهادي والرشيد وغناهما
وترفهما فاذا هما سكران لا يصلحان للخلافة

ورغم من تلك النشأة التي يخشاها تحق ، فوجد الامان
المؤتمنة على ابراهيم الموصلي ألا يشرب بحضرة الهادي
والرشيد . وكيف يمنع المحذور وكل العوامل ممهدة لهذه
النشأة . حادثة الموصلي وقاسية الهادي والرشيد لهذه
الحادثة ..

فأتت الجواسيس المهدي وما يقول انه غناهما وسقاهما
شرابا معا . وحق حنق المهدي من هذه الفعلة خصوصا
بعد ان استوثق منه . فضربه ضربا مبرحا ، ثم نهاه ، ثم
عاد فأقصاه عن القصر ووضعه في السجن وأمر بتقييده
فيه تقييدا شديدا . ولكن كان من حسن حظه أن مات
المهدي وحده الهادي الذي حبس الموصلي من أجله ، فاستنجد
به فانجده ، ومنحه الهادي مالا كثيرا حتى أصبح ثريا ،
واتخذه نديما له حتى مات

مدرسة الموصلي

ولمع الموصلي درويه في عهد الرشيد .. فقد كان الرشيد
أحب للموصلي وأحب لغنائه فقربه اليه وجعله نديمه مجلسه .
وصار يكسب من الرشيد ومن مدرسته أخرى اقتدى

أسمها وعنوانه كي [illegible] الحفلات [illegible]
وبعضهن [illegible] والبعض الآخر على [illegible] لا
[illegible] قد اجتمع لهن [illegible] وجمال [illegible]
وجمال الصوت

وكان الناس [illegible] يطلبون [illegible] الحفلات [illegible]
على [illegible] الحفلات وتنجبة لهن من هـــذا المارق ، فجاء
الموصلي [illegible] فأدرك أن [illegible] لن تروج الا اذا علم
[illegible] الحفلات . [illegible] ذلك [illegible] من أمثال طائلا ،
[illegible] مدرسة [illegible] .. [illegible]
في بيوت الأغنياء من أمراء وتجار [illegible]
شوارع بغداد أو في شوارع [illegible] أصواتهن
تنجاوب في كل مكان

□

وشيء آخر عظيم الفائدة كان [illegible] مدرسة
يعلمه في حد [illegible] وهو فن الظرف . وهذا فن واسع
ربما [illegible] . كتاب الوشي ، وإن كان قد ألفه
بعد ذلك العهد بقليل ...

فكان يعلمون درساً في آداب المجالس ومناسبتها
للحفلات [illegible]
ودرساً [illegible] على الخوان [illegible]
ودرساً ثالثاً في التعطر والتطيب ودرساً رابعاً في
تصفيف الموائد والأطعمة وكيفية الأكل، من وجوب تصغير
اللقم ، والتحرر من الشره ، وعدم [illegible] وعدم

تجاوز ما بين أيديهن ، وعدم افساد رائحتهن بأكل الثوم والبصل ونحو ذلك ، وعدم التحمل على المائدة قبل أن تفرغ ونحو ذلك

ودرسا خامسا في الزهور والورد وكيف تنظم الطاقات، ثم ينتقل في الدروس الأخيرة من الآداب الى المعنويات فكيف تتحدث فتحسن الحديث وكيف يجب أن لا يداخلن أحدا في حديثه ، ولا يتطلعن الى مكتوب يقرؤه قارىء ، ولا يطعن على متكلم كلامه ، ولا يحاولن أن يستمعن الى أحد يتحدث في سر ، ولا يسألن عما ووري عنهن علمه ، ولا يتكلمن فيما حجب عنهن فهمه ، ولا يتثاءبن في المجلس ، ولا يتمطين ، ولا يمددن أرجلهن ولا يمسسن أنوفهن بأيديهن ، ثم يعلمهن انهن اذا أهدين أهدين الشيء اللطيف الخفيف كالتفاحة المعروشة الواحدة والاترجة الواحدة، والغصن من الريحان والطاقة من النرجس ونحو ذلك ، ويعلمهن أيضا كيف يكتبن الكتب الظريفة لمن يحببن أو لمن يشكون ونحو ذلك،وكيف ينقشن على قمصانهن وأرديتهن وأكمامهن وعصائبهن ومناديلهن ونعالهن ، وما يكتبنه بالحناء على راحتهن وأيديهن ، وما ينقشنه على أواني الفضة والذهب والكاسات والاقداح وعلى آلات الموسيقى من العيدان والطبول والدفوف والنايات

وعلى الجملة ، فكان يعلمهن قوانين الظرف ، بحسب قوانين الغناء ، ويعلمهن ما نسميه اليوم « بالاتيكيت » ، ويؤلف فيه المسلمون قبل ما يؤلف فيه الغربيون اليوم بعد أكثر من ألف سنة ، وكان له في ذلك فصلان فصل نثر

الغناء في العالم الاسلامي ، ونشر طرق الانكست ، وكانت هذه الاشياء كلها تعين على نمو الحركة أضعاف ما كانت ، وتفضل هذه المدرسة وقت العراق للشام والحجاز ، فقد كان الشام مركز اللهو والطرب في عهد الأمويين

أما في العهد العباسي فتفوقه العراق ، والسبب في ذلك أمران : الأمر الأول ان العراق كان مصب أموال الدولة فكل قطر يبعث للخليفة ما يبقى من المصروف عنه ، والمال هو عصب الحياة يتبعه اللهو حيث كان ، فالغناء والشراب انما يكونان حيث يكون الترف ، والترف يكون حيث يكون المال ، والعراق أكبر المدن وأعرض جاهاً ، وكل نابغ في فن ومنه الأدباء تنفق سوقه في العراق ، ومن نبغ في غيره ولم يلتفت اليه ، خمد ذكره وضاع فنه ، فأي مغن مشهور لم يكن في العراق ، وأي نابغة في الشعر لم يكن في العراق ، وأي لؤلؤة كبيرة أو يدرة عظيمة أو عقد مرصع بديع لم يرسل الى الخليفة في بغداد

والأمر الثاني ان العراق كان أكثر بلاد الله خليطاً ، فقديما تعاقبت عليها الأمم والمدنيات ، وفي العصر العباسي كان حاضرة الخلافة ومقصد الناس ، وكان مسكن القصر الارستقراطي من الفرس وعلى مقربة من بغداد ايوان كسرى ، وبغداد محط الراحلين من اليهود والعرب والروم وغيرهم ، وكل جنس من هذه الاجناس يعرض خير ما عنده وان أدرك سائر الأقطار طرفا من زينة ولهو وغناء ، وشعر فمن بغداد تقتبس

وكان من حساد ابراهيم الموصلي زرياب المغني ، فقد

كان تلميذا لاسحاق ، وكان يحضر معه مجلس الرشيد ثم
اختلف معه ففر الى الاندلس ، وكتب سمعه شهرته اليه
فاستقبل فيها استقبالا حسنا ، ولم يكن زرياب مغنيا
فقط ، بل كان عالما اديبا أيضا ، فنشر في بلاد الاندلس
الموسيقى التي تلقاها عن ابراهيم الموصلي وابنه ، فكان
هذا من حسنات الرشيد بالوساطة

وكان زرياب مجلس عبد الرحمن الداخل كما كان استاذه
الموصلي مجلس الرشيد ، واستطاع زرياب أن يجعل من
قرطبة مرآة لبلاط الرشيد في بغداد من فخامة وعظمة ،
وأن يحمل عبد الرحمن على البذخ والترف كما كان الرشيد
وينقل حضارة بغداد الى قرطبة ، فنجح في ذلك الى حد
كبير لأنه كان عظيم الشخصية ، وقد أجـــرى عليه عبد
الرحمن الداخل ثلاثة آلاف دينار في السنة ، واعطـــاه
عقارا بقرطبة قيمته أربعون ألف دينار ، وقربه اليه وجعل
منزلته مرتبة عظيمة

وقد قالوا عنه انه كان يعرف عشرة آلاف لحن بأشعارها
ونغماتها ، ولم يقتصر على الغناء والموسيقى ، بل كان يعلم
الادب والطبيعيات ، وكان قد أخذ عن استاذه الموصلي فن
الظرف واللباقة الذي كان يعلمه الموصلي في بغداد للجواري
الحسان ، ونشر أصناف الذوق في قرطبـــة وغير من زي
الرجال ، فقد كان الرجال يرســـلون شعـــورهم طويلة
ويفرقونها في مقدم الرأس فابتدع لهم طريقـــة جديدة ،
فاصبح الزي الرائج بعد أن يقصر الرجل شعره بعد أن
يقصره ، وكان الاندلسيون يشربون الماء بآنية معدنية .

فعلموهم أن يشربوه أقداح من زجاج ، ونشر في الاندلس
نوعا من الطعام كان محببا اليه هو الهليون ، واخترع صنفا
من الاطعمة المصنعة نسبت اليه منها النوع المعروف
بالزرباجة .. فتعلمه [illegible]
زلابيا

□

وعلى الجملة فقد كان من حسنات [illegible]
من حضرته [illegible] في الاندلس [illegible]
زرياب ..
[illegible] الرشيد ، ووضع الاصوات في مدحهم [illegible]

وبعد [illegible] من آل برمك
بناة الندى والسيف والرمح والأسل
وتنبسط الآمال فيه لفضله
ولا سيما ان كان من ولد الفضل

ولا نستبعد ان يكون أبو اسحق الموصلي يحكم نقمته
للبرامكة ، كان يدعي عليهم [illegible] في مجلس الرشيد
مما يتصل بهم من [illegible] ، ولكن الرشيد ألقى على
رأسه لما طاح رؤوسهم ، لأنه لم يكن يتدخل في سياسة
الرشيد ولا سلطة البرامكة ، ولأن الرشيد كان في حاجة
اليه اذ كان لا يستغني عن طرب جميل [illegible] ،
وليس للموصلي في ذلك نظير
وعلى الجملة كان للرشيد ذوق مرهف في سماع [illegible]

ونقله . حتى ليحكون انه سمع الموصلي مرة فقال له انك اخطأت في لحنك مرتين .. فعجب الموصلي من ذلك وخرج يتحدث به . وكان مما عرف عنه انه امر بان يختار له مائة صوت « لحن » او « دور » وهي التي بنى عليها أبو الفرج الاصفهاني كتابة الاغاني . ثم أمرهم ان يختاروا منها عشرة . ثم امرهم أن يختاروا من العشرة ثلاثة . فكانت هذه الثلاثة لحنا لمعبد، ولحنا لابن سريج ، ولحنا لابن محرز

الأصمعي وابو عبيدة

ومجلس آخر هو مجلس جد ولغة وشعر يكون عماده الاصمعي وابا عبيده والكسائي . فأما الأصمعي فكان رجلا عربي الأصل محتفظا بعربيته في فلسفته وسران صوته ، وقد رحل الى البادية وسمع من أهلها لغة وأدبا ، وعلى الأخص « ملح » و « نوادر » . فكان يتخير منها ما يناسب مجلس الرشيد ويتحدث اليه،ويسأله الرشيد عما يجهله، ويسمع منه ملحه ونوادره ، ويتفقده الرشيد حين يغيب عنه

واما أبو عبيده فيهودي الأصل ليس له خفة روح الاصمعي ولا ملحه ولا نوادره ، وانما كان له مهارة في ناحية اخرى يمتاز بها وهي معرفته بأخبار الأمم من عرب وغيرهم . وكان يسر الرشيد تذكره مثالب بني أمية . هذا الى علم باللغة واسع وان لم تبلغ مبلغ الأصمعي . سأله الفضل بن الربيع يوما « كيف يعبر الله سبحانه عن شيء لم تعرفه العرب ولم تره ، اذ قال « طلعها كأنه

رؤوس الشياطين » . فقد ان العرب اذا عرفت شيئا ولو لم تره ذكرته في كلامها ، كالشاعر الذي يقول « ومسنونة زرق كأنياب أغوال »

والغول شيء لم تره العرب . ثم وضع كتابا في مجاز القرآن

وأما الكسائي فقد تعهده الرشيد من صغره ان كان هو مربيه وكان فارسي الأصل ، عربي الولاء . وامتاز عن الأصمعي وأبي عبيدة بالنحو . وكان النحو في أيامهم واسع المدلول فهو يشمل الصرف والمعاني والبيان والبديع ونحو ذلك . ويظهر انه كان جادا كل الجد ليس كالأصمعي مرحا كل المرح ولم يكن له علم بالشعر كالذي للأصمعي ، فكان الأصمعي يعلمه في الشعر والكسائي يعلمه في النحو

□

ولقد كانت مجالسهم مجالس جد من لغة ونحو وأخبار وما الى ذلك . وقد استفاد الرشيد كثيرا من علمهم ونحوهم

ومجلس آخر كان عماده الشعر يجلس فيه أبو العتاهية وأبو نواس ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وأمثالهم ، ينشدون له الشعر أحيانا في مديحه ومدح آبائه الى نحو ذلك

وهو يتحدثهم دعابة له ويظهر ترفا وأبهة ويجزل لهم العطاء بقدر ما يجزلون له من الثناء

واحتال ليكون بحنث يمينه ومحاولة خروج من
مأزق في مأزق القصر حول جارية أو حول مسألة يمينه
في زمنه .. وعندئذ كان أبو يوسف القاضي . كالذي
أتى به أميرا من أمراء بني عباس اشترى جارية جميلة
فطلبها منه الرشيد فحلف بالأيمان المغلظة أن لا يبيعها،
وحلف الرشيد بالأيمان المغلظة أن يشتريها، وتحرج
الأمر بينهما

فاستدعى أبا يوسف لحل الإشكال، بأن يهب الأمير
نصفها للرشيد ويشتري الرشيد نصفها الآخر فكان ذلك.
وكان واسع العلم متقن الحيلة لبقا مما جعل الرشيد
يقربه في بغداد، وهذا يجعله قاضي القضاة فينشر
بذلك مذهب أبي حنيفة شيخ أبي يوسف

تنظيم الضرائب

وكان أبو يوسف قد بث همه إلى نظم الضرائب وهو الذي
وضع له كتاب الخراج فنظم له فيه الضرائب وكيف
تحصيلها . وذكر الرشيد في أول كتابه هذا، وقدمه له مع
نصائح حكيمة وقوره مثل ما يخاطبه به فيقول: «لا تؤخر
عمل يوم إلى غد .. فإنك إن فعلت ذلك أضعت» و«إن
الأجل دون الأمل .. فبادر الأجل بالعمل، فإنه لا عمل
بعد الأجل» و«إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي
إلى ربه، فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من
نهار، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت
به رعيته» و«لا تزغ فتزيغ رعيتك» .. و«إياك والأمر
بالهوى والأخذ بالغضب» .. و«إذا نظرت في أمرين

أحدهما للدنيا والآخر للآخرة فحسر أمر الآخرة على
أمر الدنيا ، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى .. وكن من
خشية الله على حذر . واحفظ لسانك عندك في أمر الله سواء
القريب والبعيد ولا تخف في الله لومة لائم . واحذر [illegible]
الحذر بالقلب وليس باللسان .

□

ويذكر أبو يوسف أن رجلا نصرانيا كان يأتي الحسن
البصري ويحضر مجالسه فمات . فسار الحسن إلى أخيه
يعزيه فقال له : أثابك الله على مصيبتك ثواب من أصيب
بمثلها من أهل دينك ، وبارك لك في الموت وجعله خير غائب
ينتظره .. عليك بالصبر فيما نزل بك من مصائب
وهكذا نرى في ثنايا الكتاب دررا غالية ونصائح عامة

ويمضي .. يا أمير المؤمنين إن الله وله الحمد قد قلدك أمرا
عظيما وإنه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب . قلدك
أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت . وأنت تبني لخلق كثير
قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك
أمرهم . وليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوى أن
يأتيه الله من القواعد فيهدمه وعلى بانيه . فلا تضيعن
ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية فإن القوة في
العمل بإذن الله .

والكتاب ليس مقصورا على الخراج .. ففيه مثلا
نصائح متعددة غالية كحسن معاملة الأسرى وأنه إذا أمن
المحارب لم يؤخذ منه شيء . وكذلك الأمر بخصوص معاملة اليهود

والنصراني . قال أبو يوسف فسأل أبا حنيفة عن اليهودي أو النصراني يموت له ولد .. فهل يعزى ، وبم يعزى ، فقال : نعم يعزى ، ويقال له ان الله كتب الموت على خلقه ، نسأل الله أن يجعله خير غائب منتظر ، وانا لله وانا اليه راجعون ، عليك بالصبر فيما نزل بك لا أنقص الله لك عددا »

وكان على باب قصر الخلد حجرة واسعة يجلس فيها الشعراء والمغنون والفقهاء . تدور بينهم الاحاديث المختلفة في الموضوعات المختلفة ، وجميعهم ينتظر دعوة الحاجب لطائفة منهم حسب مزاج الرشيد في وقته وحسب مايعرض له من أحداث ، وأحيانا لا يجد الحاجب من يطلبه في هذه الحجرة فيذهب اليه في بيته

واذ كان الرشيد حاكما بأمره فهو أحيانا يرضى لا الى حد وأحيانا يغضب لا الى حد ، فكان من دعي يغسل ويكفن قبل ذهابه اليه . مما يعطي صورة سيئة للحكام في هذا العهد

مجلس العظة والاعتبار

ومجلس آخر يرجع فيه الرشيد الى نفسه ويدعو من يعظه أو يذهب اليه اذا كان الواعظ لا يغشى مجالس الأمراء . كالذي روي انه استدعى ابن السماك الواعظ المشهور فلما دخل عليه قال له : عظني ..

فقال : يا أمير المؤمنين .. اتق الله وحده ، لا شريك له ، واعلم انك واقف غدا بين يدي الله ربك ، ثم مصروف

الى احدى منزلتين لا ثالثة لهما ، جنة او نار »

فبكى هرون حتى اخضلت لحيته .. واقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك ، وقال : سبحان الله ! هل تخالج شك فى ان امير المؤمنين مصروف الى الجنة ان شاء الله ، لقيامه بحق الله ، وعدله فى عباده .

فقال : « يا امير المؤمنين ان هذا – يعنى الفضل بن الربيع – ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك » . فبكى هرون حتى اشفق الموجودون عليه

وافحم الفضل بن الربيع ، ولم ينطق بحرف حتى خرج من حضرته . ويأتى الرشيد الفضيل بن عياض ، فيفتح له الباب هو والفضل بن الربيع . ثم يصعد الفضيل بن الى اعلى الغرفة مسرعا ويطفىء السراج ، ويتجه الى زاوية من زوايا الغرفة فيبحث عنه الرشيد حتى يجده ، فيقول الفضيل وقد حس بيده : « ما ألينها من يد ان نجت غدا من عذاب الله » ، ثم يسأله ، ثم جثت .. « قد حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك ، ولو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم ان يحملوا عنك بعضا من ذنب ما فعلوا ولكن اشدهم حبا لك اشدهم هربا منك »

ثم قال ان عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم ابن عبد الله بن عمر ، ومحمد بن كعب القرظى ، ورجاء بن حيوة ، وقال لهم : « انى قد ابتليت بهذا البلاء فاشيروا على » .. فعد الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة ، فقال له سالم : « ان أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها على الموت » . وقال له محمد بن

مطعم ، ان اردت النجاة غدا من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك ابا ، وأوسطهم لك أخا ، وأصغرهم لك ولدا ، فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك »

وقال له « رجاء » : ان أردت النجاة غدا من عذاب الله ، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك » . فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا حتى غشي عليه . وقال الفضل بن الربيع : « ارفق بأمير المؤمنين » . فقال الفضيل : « يا ابن ام الربيع تقتله انت وأصحابك وأرفق انا به » . ثم افاق فقال : « زدني » . .

فقال : « يا أمير المؤمنين .. بلغني ان عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا اليه السهر فكتب اليه عمر يقول : يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود عباد الله فيها ، فلما قرأه طوى البلاد حتى قدم عليه . فقال له عمر « ما أقدمك ؟ » . قال : « خلعت قلبي بكتابك . لا وليت لك ولاية أبدا حتى ألقى الله »

وعاد الرشيد أيضا فبكى بكاء شديدا .. ثم قال « زدني » . فقال : « يا أمير المؤمنين ان جدك العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم جاء فقال : « يا رسول الله .. أمرني على امارة » .. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يا عم .. نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها .. ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة .. فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل »

فبكى الرشيد .. ثم قال : « زدني » . فقال : « ياحسن الوجه ان استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل ،

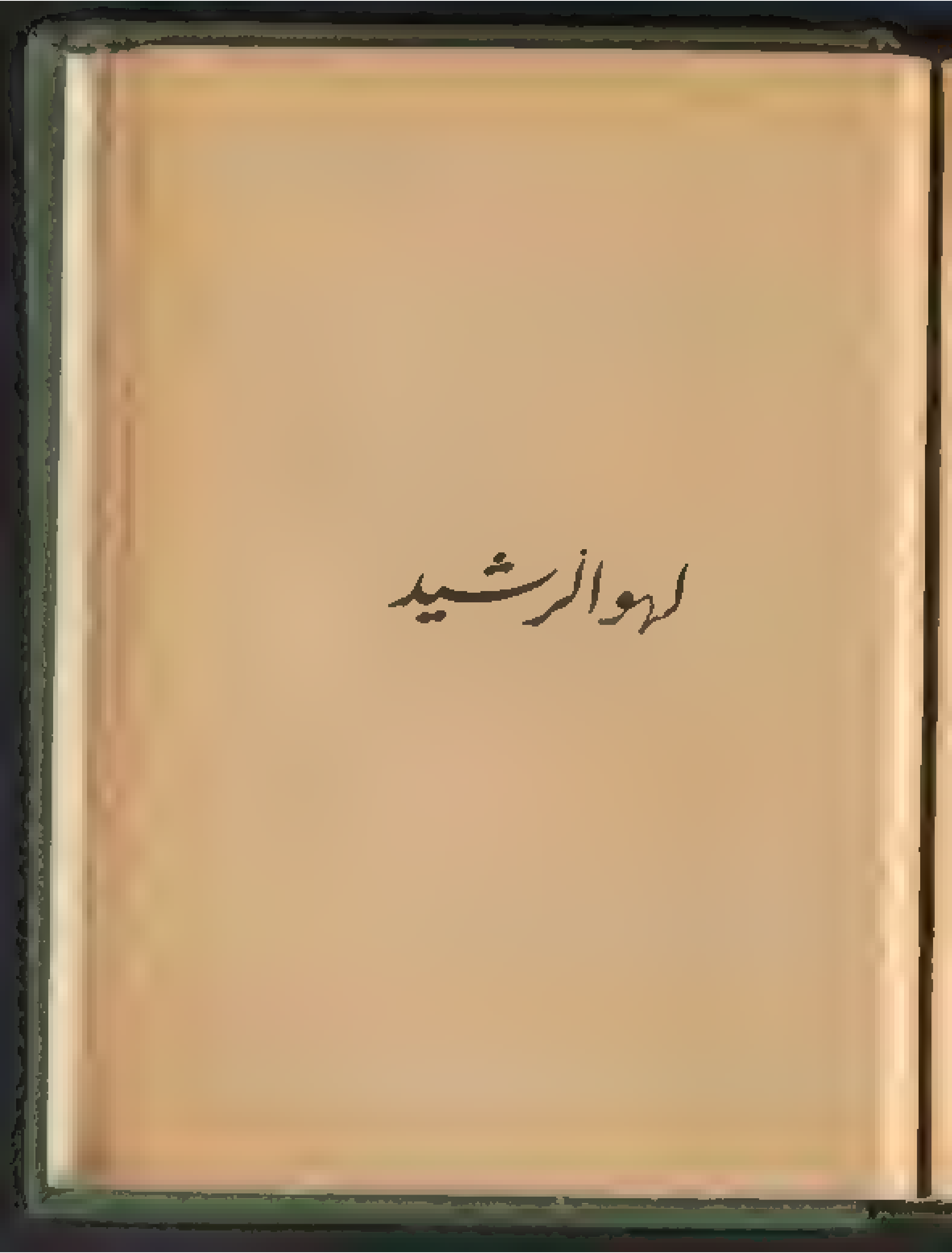
وإياك أن تصبح أو تمسي وفي قلبك غش لرعيتك ..»

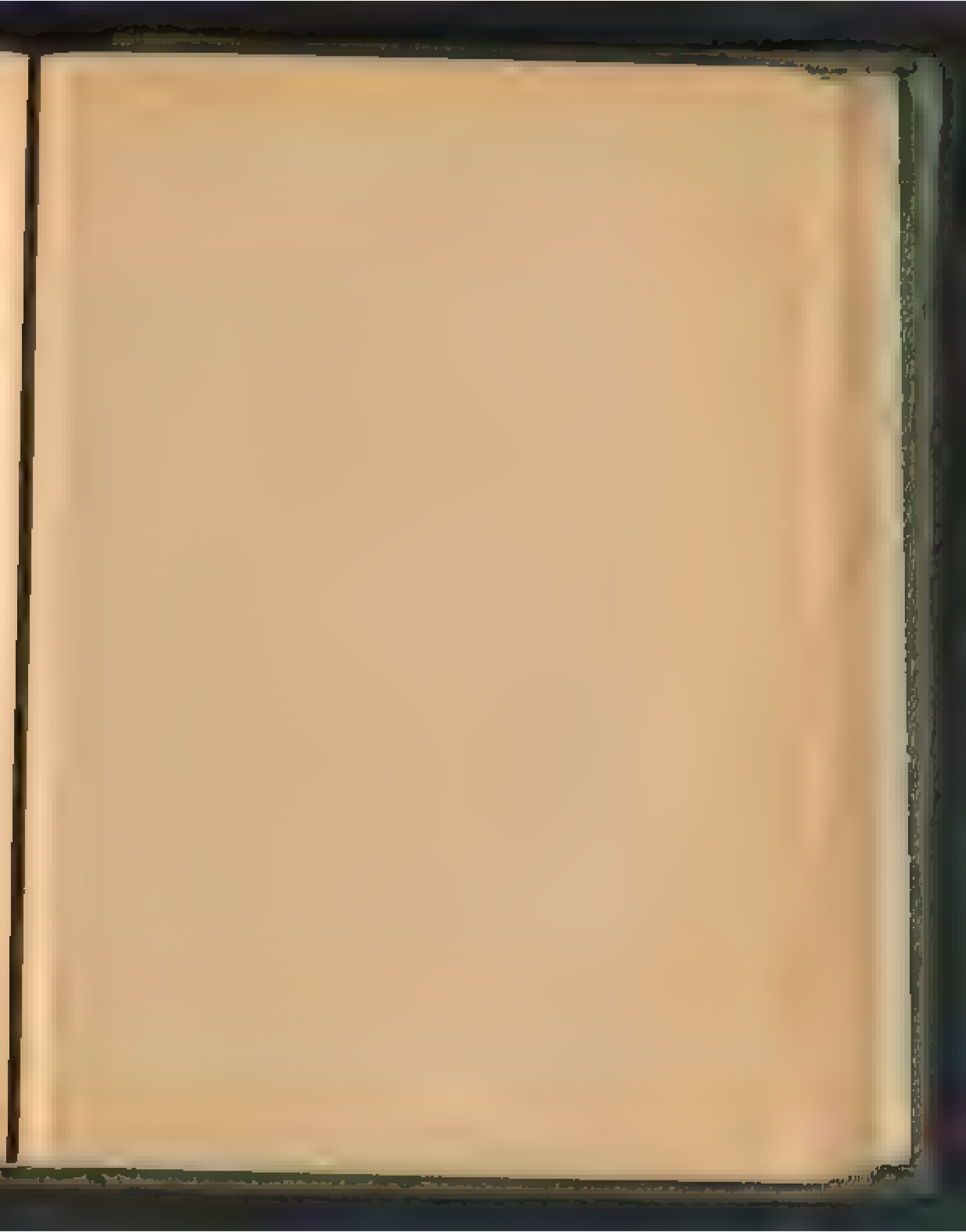
فبكى الرشيد أيضا.. ثم قال للفضيل [illegible] «أعليك دين؟»

قال: «دين لربي يحاسبني عليه».. فقال هرون «إنما أعني دين العباد».. فقال [illegible] ربي لم يأمرني بهذا.. وأمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره».. فقال له الرشيد «هذه ألف دينار خذها فأنفقها [illegible] وتقو بها على عبادة ربك»

فقال الفضيل «سبحان الله.. [illegible] على [illegible] وتكافئني بمثل هذا.. سلمك الله.. [illegible]..




لهو الرشيد



صورتان

هناك فرق كبير بين صورة الرشيد التي ينقلها المؤرخون أمثـال الطبري وابن خلدون وأبي يوسف في الخـراج ، وصورته التي يصورها كتب ألف ليلة وليلة والأغاني ، والأعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس ... الخ

فصورة المؤرخين تصور الرشيد رجـل جد فيه شيء من اللهو ، والكتب الأخيرة تمثله رجل لهو فيه شيء من الجد .
وربما كانت صورة المؤرخين أعدل لأن الأخرى أكثر حرية وتساهلا في الرواية وأميل الى اللهو ودعوة الناس اليـه وأميـل الى التزيد في ذكر عطايا الرشيـد والبرامكة ونحوهم لعلهم يستفيدون من أمراء عصرهم بعض ما أعطى من يحكون عنه .. فإنا لو حسبنا حساب ما أعطى أعطاه الرشيـد والبرامكة على قولهم ، لم تكف الدنيا لتحقيق ما قالوا .. فكيف ومالهم محدود ...

على كل حال كان الرشيد من عهد ملكه حسب من اللهو وللهو ونحوه عصر تاريخ طويل يبتدئ من الدولة الأموية . ولـكن الأمويين كانوا يعملون المـلاهي لأذواقهم البسيطة الفطرية .. كالذي روي أن الحجاج أولم في اختتان بعض ولده ، فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس ، وقال له : « أخبرني بأعظم صنيع شهدته »

فقال له « نعم .. أيها الأمير . شهدت بعض موائد كسرى ، وقد صنع لأهل فارس صنيعا وأحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة .. أربعا على واحد وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس . فاذا طعموا اتبعوا أربعتهم المائدة بصحائفها ووصائفها » ...

فقال الحجاج يا غلام انحر الجزور كأنه كره هذا الوصف واستعظمه

وكان الأمويون على كل حال يقلدون العادات الفارسية والأغاني الفارسية ونحو ذلك بذوقهم العربي . أما العباسيون فكانوا يأخذون عادات الفرس كما هي بحذافيرها .. اتخذوا النيروز لهم عيدا ولم يكن له في عصر الأمويين شأن له بال . وفي عصر العباسيين كانت تهدى فيه الهدايا وتوزع فيه الظرائف ويحتفلون به كما يحتفلون بالعيد الكبير والصغير .. فلما جاءت الدولة العباسية كانت الأمور تحتاج الى جد لا لهو فيه . ولولاه لضاعت الدولة من أيديهم . فكان أبو العباس السفاح مثلا أول الخلفاء العباسيين جادا لا يلهو . ولما تزوج أم سلمة حلف لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى

وحاول بعض المقربين اليه أن يحملوه على اللهو فأبى واستبعدهم لأنه شعر بكثرة ما عليه من تبعات لا تمكنه من أن يلهو ساعة

وجاء بعده رجل الدولة ابو جعفر المنصور . فكان مثل أخيه جادا لا يلهو . فيروى الطبري أنه لم ير في دار المنصور لهو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث . ولما سمع شعر طريف بن تميم العنبري :

ان قناتي لنبع لا يؤيســــها
غمز الثقــاف ولا دهن ولا نار

متى اجر خائفا تأمن مسارحه
وان أخف آمنــا تقلق به الدار

ان الامور اذا أوردتها صـــدرت
ان الأمور لها ورد واصـــــدار

قال : انا احق بابياته منه . وامر ان يحدو الحادي له بهذه الابيات . فامر باعطائه درهما واحدا ...

فقال الحادي : يا أمير المؤمنين حدوت بهذه الأبيـــات لهشام بن عبـــد الملك ، فأمر لي بعشرين ألف درهم وتأمر لي أنت بدرهم !

قال : انا لله .. ذكرت ما لم يجب ان تذكره . ووصفت رجلا ظالما أخذ مال الله من غير حقه وأنفقه في غير حله .. يا ربيع . اشدد يديك به حتى يرد المال

فما زال الحادي يبكي ويستشـــفع حتى كف يده . وكان لا يشرب ولا يحب الشراب . وكن ما فعل به أذن لبختيشوع الطبيب أن يشرب بحضرته . واشتد الأمر بالناس من كثرة جده وقسوته . ولما رأوا المهـــدي يلهو بعض الشيء ويلعب سري عنهم كما سري عن الناس بموت عمر وتوليه عثمان . وقد كان المهدي كريما لا يكسر ، ويحب الفنون الجميلة من غناء وشـــــعر . وبدأ يســـمعهم من وراء الســـتار حفظا لهيبة الخلافة . ثم جره الســـمار الى أن يحضر مجلس المغنين بدعوى أن المتعة في مشـــاهدة السمر أدعى الى السرور . كما كان يكثر من الجوارى ويحب شراءهن ولم يكن يشرب النبيـــذ

ولكن يسمح للناس أن يشربوا في حضرته ، وملأ شعار بغداد وغيرها بشعره الخليع من مثل :

عسر النساء الى مياسرة

ومنه

قد عشت بين الريحان والراح والمز
هر في ظـــــل مجلس حسن

وقد ملأت البلاد ما بين فغفو
ر الى القيروان فاليمن

شـــعراً تشتفي به [illegible]
[illegible] الغواة بلا دين

ثم تناهى الهـــــدى فانصرفت
نفسي [illegible] اللهو

فالحمـــــد لله لا شريك له
ليس بـــــاق شيء على الزمن

اسراف الرشيد

ثم استقبل اللهو في عهد الرشيد نفحة جديدة ، فأسرف فيه اسرافا لم يعرفه خليفة من قبله ، وقد منحه الله عاطفة قوية تسمو بها نفسه متى وجدت دواعي الأنس ، وساعده على ذلك سلطان البرامكة في زمنه وعن عادات الفرس ، وما نقل عنهم من ترف ونعيم ، وكان صديق الرشيد جعفر البرمكي شابا مسرفا على نفسه يلهو ما شاء له اللهو ، وكلاهما كان اذا نحا ناحية يصل فيها الى نهايتها ، حتى يخيل لمن يقرأ مثل كتاب الاغاني انه لا يعرف الا اللهو ،

ويخطو خطوة أخرى فيشرب ويسرف في الشراب لا كما
كان يفعل أبوه ..

على أنه واثق يقينا لم يكن لاعبا كل اللعب كما تصوره
الأغاني .. ولا جادا كل الجد كما يصوره بعض الناس ،
وإنما كان جادا لاعبا معا ، يثور عاطفة دينية أحيانا
فيصلي مائة ركعة ويبكي من الوعظ ويحج ماشيا ، ويثور
عاطفته الدنيوية حينا فيسمع الغناء ويشرب الشراب ،
ويقول الشعر ويثور عاطفته الحربية أحيانا فيتولى قيادة
الصائفة والشاتية ، فهو السائس من جد وهزل .. فإذا
جاء وقت الجد أسرف فيه وإذا جاء وقت اللهو أسرف فيه ،
ويقول مع القائل :

ولله مني جانب لا أضيعه وللهو مني والخلاعة جانب

فكان الرشيد من هذا الشعب يحارب فيحسن الحرب ،
ويلهو فيحسن اللهو ، ولكن لهو من نوع [illegible] حتى
تستشعر الخمر في رأسه ، فيسمعه [illegible] الخمر و[illegible]
لعبها بالعقول كالذي يقوله :

اسقني يا بن أدهما	واتخذني لك ابنما
اسقنيها سلافة	سبقت خلق آدما
فهي كانت ولم يكن	ما خلا الارض والسما
رأت الدهر ناشئا	وكبيرا مهرما
فهي روح مخلص	دون الجسم والدما
فاسقنيها وغن صوتا	[illegible] لك الخير أعجما

أو يقول

يا نديمي رد بالله [illegible] وعطائي

اسقني بالكاس والطا س جميعا وبجام
واسقني حتى تراني لا أرجي للقيام

فالرشيد يستخدمه كنديم على الشراب يطرى له شرابه ويحضه على الاكثار منه ، فهو كانسمه المرحة المسهرة على الوتر المرح الطروب

وأما منصور النميرى فيطرب الرشيد حين تثور عاطفته على الأمويين والعلويين ، فيحتاج الى من يعينه بذمهم جميعا ومدح آل العباس عامة ومدحه خاصة وهكذا مما نوع الشعر وفرعه . وجعل باب المديح فى الأدب من أكبر الابواب وأطولها

وكان يحضر من يشرح له مسألة نحوية أو فقهية أو أدبية، كما يحضر الكسائي من عنى فأجاد ، ومن عنى فاحسنت

يسمع قول أبي العتاهية

خانك الطرف الطموح ايها القلب الجموح
لدواعي الخير والشر دنو ونزوح
هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح
كيف اصلاح قلوب انما هن قروح
أحسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح
بين عيني كل حي علم الموت يلوح
كلنا فى غفلة والموت يغدو ويروح
لبنى الدنيا من الدنيا غبوق وصبوح
رحن فى الوشى وأصبحن عليهن المسوح
كل نطاح من الدهر له يوم نطوح
نح على نفسك يا مسكين ان كنت تنوح

لتموتن وان عمــــرت ما عمــــر نوح

فأبو العتاهية يعجب الرشيد شعره اذ كان به نزعه الى الزهد واحتقار ما عنده من ترف ونعيم ... فيسمعه يقول

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خـــلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفــل ما مضى
ولا ان ما يخفى عليـــه يغيب

لهونا لعمـــر الله حتى تتابعت
ذنوب عـــلى آثارهن ذنـــوب

فيـــاليت ان الله يغفر ما مضى
ويأذن فى توباتنــــا فنتـــوب

وان امرءا قد سار خمسين حجه
الى منهـل من ورده لقـــريب

فاحسن جزاء ما اجتهــدت فانما
بقرضك تجزى والقروض ضروب

وهكذا من نصائح يميل اليها الرشيد فى بعض الاوقات فيتعظ بها . وقد يبكي منها فيكون ابو العتاهية فى ذلك كانغمة الحزينة على وتر حزين . فيبكي الرشيد ويتعجب. ويسمع نكتة من ابن أبي مريم فيضحك حتى يستلقى على قفاه وهكذا

ويقوم خارجى عليه فيقتل أبطاله وينهب أمواله مرارا، ويجهز اليه الرشيد جيشا قويا فيحاربونه ويغلبونه. ويأمر الرشيد باحضاره فلما يمثل بين يديه ، يقول الرشيد « ما تريد أن أصنع بك ؟ » . قال « ما تريد أن يصنع الله بك اذا وقفت بين يديه »

فأمر بإطلاقه .. فلما خرج قال بعض جلسائه « يا أمير المؤمنين .. رجل قتل بطانتك وانتهب أموالك تصفحه بكلمة واحدة ؟ فهذا مما يجرىء عليك أهل الشر » .

فقال الرشيد « ردوه » . ففهم الرجل انه قد تكلم في أمره فقال « يا أمير المؤمنين لا تطعهم ، فلو أطاع الله فيك الناس ما ولاك عليهم » .

فيعفو ثانيا ...

ويخرج خارجي آخر ليس له من حجة وراعه فيقبض بطانته ويدوخ جيوشه ، فيحضر اليه والرشيد على سرير الموت ، فيأمر بقتله ويقول « والله لأقتلنك ولو كنت في النفس الاخير » وهكذا تتجاذبه عواطف الخير والشر والانتقام والعفو ، والناس يقلدونه

قدوة الرعية

فما صدقوا أن رأوا الرشيد يغشى مجالس اللهو ويستمع الى ابراهيم الموصلي وغيره .. ويشهد حفلات الرقص حتى قلدوه في ذلك ، فاغشى الكبير والوسط الحال ، والتاجر والصانع المثرى يقيمون حفلات على قدرهم مثله ، وقد رزق الله بني العباس كثرة في العدد من كثرة ما يصلون الى الاحرار والاماء ، حتى لقد احصى عدد أولاد العباسيين فكان أكثر من ثلاثين الفا تلاقيهم كانوا أو أكثرهم أغنياء مترفين ، يقتدون برئيسهم الرشيد ويقلدونه مثله في اللهو والترف

وقد حدثونا ان عبد الله بن العباس بن الوزير الفضل ابن الربيع كان مغنيا ماهرا ، وفاحشا مستهترا .. يصطبح

في حدائق النرجس ويعيش عيشة لهو وخلاعة . وأمثاله كثيرون يطول ذكرهم

وسرف العدوي من أولاد الأغنياء أن الطبقة الوسطى . وبالغوا في الموائد وتنسيقها وألوان طعومها . ولكن الحق يقال ان الحياة الاجتماعية في بغداد كانت أشبه شيء بالحياة الاجتماعية الآن في مصر . غنى مفرط وفقر مدقع . فالأمراء وكبار التجار يجري المال في أيديهم جري الماء . والعلماء وصغار الفلاحين وصغار التجار لا يجدون ما يكفون إلا أن يحصل عالم على خليفة أو أمير فيغدق عليه الورق . فالمعيشة لم تكن ديمقراطية على النحو الذي نفهمه اليوم في ديمقراطية تستطيع أن تكسب فيه العالم من السعة

إنما كانت حياة أرستقراطية إن لم ينعم العالم والشاعر بأمر عاش من الجوع . ولذلك اشتهر قول القائل في بغداد :

بغداد دار طيبها آخذ	نسيمه مني بأنفاسي
تصلح للموسر لا لامرئ	يبيت في فقر وإفلاس
لو حلها قارون رب الغنى	أصبح ذا هم ووسواس
هي التي توعد لكنها	عاجلة لطاعم الكاسي
حور وولدان وكل ما	تطلبه فيها سوى الناس

ويقول آخر :

أدم بغداد والعيش بها	من بعد ما خبرة وتجربة
ما عند سكانها لمختبط (١)	خير . ولا فرجة لمكروب
يحتاج باغي المقام بينهم	إلى ثلاث من بعد ترتيب

(١) المستجدي

كنوز قارون أن تكون له   وعمر نوح وصبر أيوب

ولذلك زهد الناس في هذه الحالة السيئة . ونزع بعضهم إلى الزهد والتصوف . وقد شكا أبو العتاهية من سوء هذه الحالة، وصور بؤس الشعب في شعره تصويرا لطيفا فقال

من مبلغ عني الاما   م نصائحا متواليه
اني أرى الاسعا   ر أسعار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزره   وأرى الضروره فاشيه
وأرى غموم الدهـ   ـر رائحة تمر وغاديه
وأرى اليتامى والارا   مل في البيوت الخاليه
من بين راج لم يزل   يسمو اليك وراجيه
يشكون مجهدة بأصوا   ت ضعاف عاليه
يرجون رفدك كي يروا   مما لقوه العافيه
من يرتجى للناس غيـ   ـرك للعيون الباكية
من مصبيات جوع   تمسي وتصبح طاويه
من يرتجى لدفاع كر   ب ملمة هي ماهيه
من للبطون الجائعا   ت وللجسوم العاريه
يا ابن الخلائف لا فقد   ت ولا عدمت العافيه
ان الاصول الطيبا   ت لها فروع زاكيه
ألقيت أخبارا اليك عن الرعيه شافيه

▭

وحتى الأغنياء والمترفون لم يكونوا مطمئنين على نعماهم وثروتهم كما ينبغي، لأنهم كانوا عرضة في كل وقت للقتل والمصادرة

وقد صدق العتابي ، اذ قيل له « لم لا تقترب بأدبك الى السلطان ؟ » . فقال « لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء ويرمي من السور في غير شيء ، ولا أدري أي الرجلين أكون »

ويصف لنا المؤرخون لهذا العصر فرقة تسمى المطوعة تنكر ما فشا من الفسق في بغداد . وتروي لنا « طبقات الصوفية » انتشار الزهد واعتزال المتصوفين في هذا العصر وذلك رد فعل لحياة اللهو بين الأغنياء والمترفين . ومن أراد أن يعيش ولم يتصل من العلماء بأمير أو وزير عاش فقيرا بائسا كالخليل بن أحمد يقول « اذا أغلق على باب حجرتي كفت هموم الدنيا » .. وجاءه يوما رسول الخليفة فأراه الخليل كوزا مملوءا بالماء وكسرة خبز جافة . وقال « من كان عنده هذا لم يحتج الى خليفة أو أمير »

وحكت لنا كتب التراجم أخبارا كثيرة عن علماء زهدوا في الأمراء وعطايا الخلفاء ، فكان مصيرهم الفقر المدقع .. كالذي حكوا عن عبد الوهاب المالكي أنه كان يجتمع على بابه المئات من العلماء . ولما أراد الرحيل الى مصر ودعه عدد كبير .. فقال « والله لو وجدت في بغداد من الخبز ما يكفيني ما انصرفت عنكم وعنها » . فلما وصل الى مصر وتيسرت حاله حضرته الوفاة فقال « سبحان الله .. اذا عشنا متنا »

وفي كتاب الفلاكة والمفلوكين أمثلة كثيرة من هذا القبيل

الاسراف في المديح

وهذا هو السبب في أن الشعر الكثير في الأدب العربي

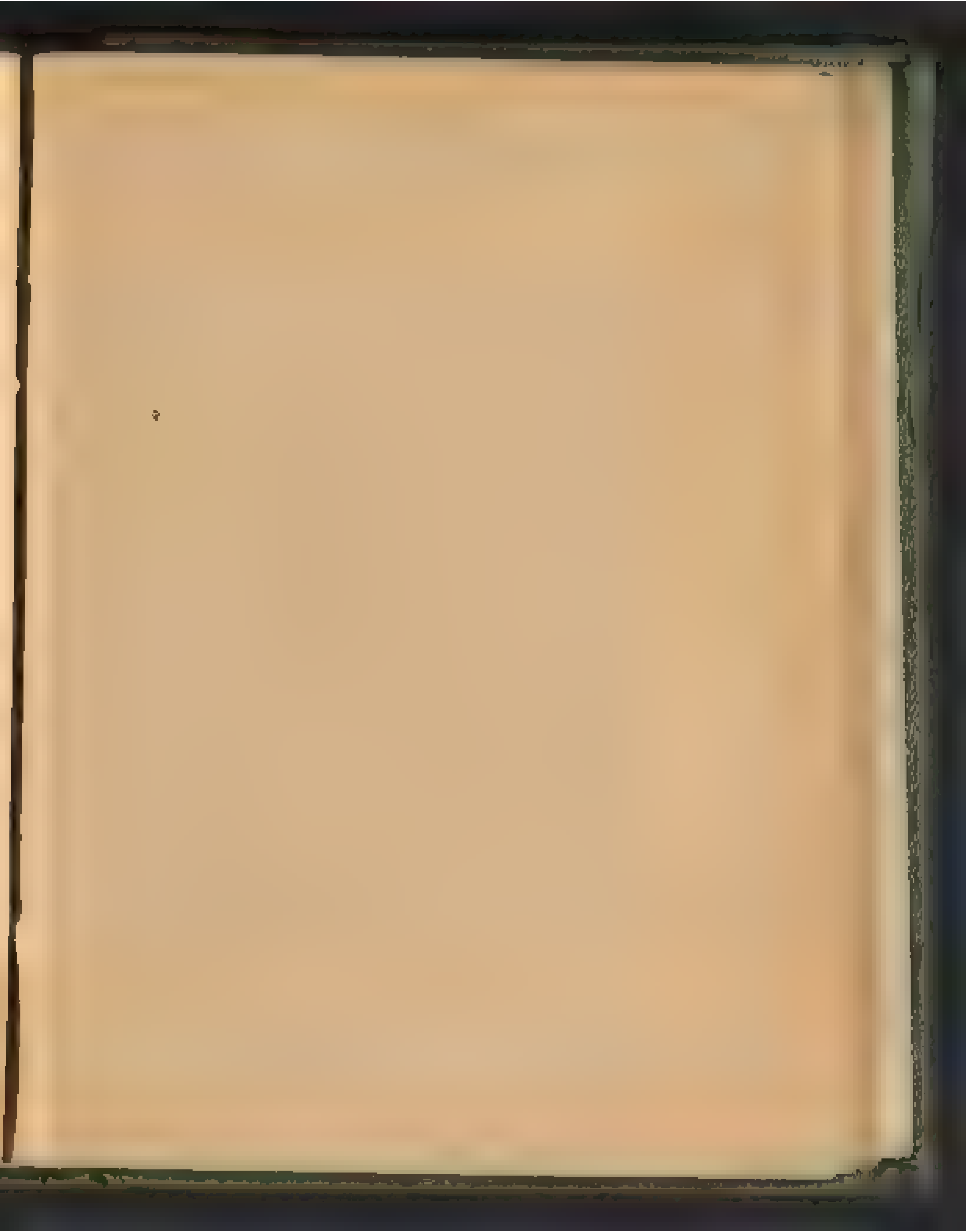
هو شعر المديح أو بعبارة أخرى هو شعر الاستجداء . وأما غيره من الشعر فقليل بالنسبة إليه . وهذا أيضا هو السبب في أن الظاهرين من الشعراء والأدباء هم شعراء بغداد

وأما من عداهم فمغمورون . ولذلك أيضا كان العالم الديني يكاد يكون أفقر العلماء . لأن الدين يمنعه عن الابتذال . ولذلك نقرأ تراجمهم فنرى فقرا مدقعا وبؤسا واضحا ورضا بالقليل مع الإفراط في الجوع واحتمال الفقر

وقد سبب الإفراط في الغنى والإفراط في الفقر حركة شبه الاشتراكية اليوم ، فقد روى المسعودي أن محمد بن سليمان قريب الرشيد كان يغل كل يوم مائة ألف درهم فكان يركب يوما بالبصرة وسوار القاضي يسايره في جنازة ابنة عم له . فاعترضه رجل وقال له : « يا محمد أمن العدل أن يكون غلتك في كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه ؟ »

ثم التفت إلى سوار ، فقال : « إن كان هذا عدلا فأنا أكفر به ، فأسرع إليه غلمان محمد وكفوه عنه .. وأيا ما كان، فنحن لو نظرنا إلى الرشيد نجد زماما نفسه ، يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، يحكم مستبدا ، لا يقيده برلمان ولا يتقيد بعدل دائم .. يكثر من مصادرة الأموال ، ويوزعها بالهوى والاستحسان على من لها بأهل ومن ليس لها بأهل . ولا يعبأ بأن أموال الرعية للفقراء والمساكين .. تصرف منها آلاف من الدنانير على بيت من الشعر قيل في مدحه ، أو صوت جميل لحن له ، أو على مسألة نحوية تافهة لا تساوي شيئا ، أو على جارية جميلة تحسن الغناء

شارلمان والرشيد



تجاوز الدين واوامره

وكان الخلفاء من عهد معاوية ومن بعده قد تعدوا الاسلام واوامره الى رغباتهم وشهواتهم . ولم يشذ عن هـــذا الا عمر ابن عبد العزيز حيث أحاط نفسه بعشرة من كبار التابعين والفقهاء العالمين بأصول الاســـلام حتى لا يفعل فعلا الا باستشارتهم وعمل برأيهم . أما من عداه من عهـــد معاوية فكانوا يعملون برأيهم هم . وافق روح الاسلام أو خالفه

فليس الرشيـــــد بدعا من الخلفاء وانما هو نموذج كل من قبله . يسير سيرتهم ويتبع ما يتبعه غيره مثله .. فلو ان خليفة في العصر الحاضر أمر بقتـــل رجل من رعيتـــه لكان جرما شنيعا يجري في صدور الناس . ولا ينسونه

نعم .. يجب أن نقيس الأخـــلاق في كل زمان ومكان بحسبها . فلو خرجت امرأة سافرة في عصرنا ما عد هـــذا جريمة . بل لو خرجت محجبة لعد حجابها جريمة . والأمر على العكس منذ خمسين عاما فلو خرجت امرأة حرة سافرة لانتقدها الناس وعدوا ما تأتي به منكرا كبـــيرا .. وهكذا

تتطور الاخلاق بتطور الزمان

وكان الرجل يعير بأنه لم يعرف أبوه .. كم لاقى زياد من العنت لمثل هذا . وهو اليوم في بعض بلدان أوربا يعامل كمعاملة من عرفت آباؤهم

كل هذا يخفف من الحملة على الرشيد وأعماله في زلاتهم كسفكه دماء البرامكة من غير محاكمة ولا معرفة جرم ، ومثل مصادرته للأموال وبعثرته مما صدر ونحو ذلك . وهذا لا نجد اساسا الا حسب ظروفهم ومنازلهم ومقدار عقولهم

علاقة الرشيد بشارلمان

ومما زاد في شهرة الرشيد علاقته بالدول العربية ، وتبادل الوفود معه وارسالها . فقد تحدث مثلا مع شارلمان امبراطور فرنسا والمانيا وايطاليا وسفرت بينهما سفارات طويلة الأمد مرتين : الاولى استغرقت ما بين عامي ٧٩٨ و ٨٠١ وكانت السفارة في المرة الاولى مؤلفة من سفيرين اوربيين ومعهما مترجم يهودي يعرف العربية يقال له اسحق .. وكانت السفارة تتضمن أشياء ثلاثة . ان يتعهد الرشيد الى شارلمان بالقيام بمصالح المسيحيين فيما يصلحه شارلمان من بلاد الاندلس . وان يثير شارلمان الحرب القائم بالدعوة العباسية في الاندلس وذلك لاشتراك الطرفين في عداء الاندلس . الرشيد لخروج بني امية عليه وشارلمان لأن الاندلس اقتطعها المسلمون من دولته . ذلك أن السفاح لما شدد النكير على الأمويين وقتلهم فر عبد الرحمن الملقب فيما بعد بالداخل هائما على وجهه هو وأخوه واختفى في بعض البلاد . فلما حس عبد الرحمن وأخوه بالعباسيين يقدمون فرا وعبرا النهر . فوعدهما العباسيون بالنجاة وصدق أخوه . ورجع فقتل

ولم يصدق عبد الرحمن وسار الى فلسطين ومنها الى

افريقية ثم الى الاندلس . وأمكنه أن يخضعها لأمره ، مستغلا فرصة وجود الخلاف في البلاد والنزاع العنيف بين اليمنيين والمصريين

وأخيرا استولى على قرطبة ، ثم بقية الأندلس ، ونشر الأمن في أرجائها ، وعاصر ذلك المنصور ، ثم الرشيد من بعده .. اذ كانت الاندلس قد خرجت من أيدي العباسيين

وفي سنة ٧٧٧ ائتمر زعماء العرب في الشمال الشرقي من الاندلس وألفوا كتلة قوية واستعصوا على عبد الرحمن . وتعاهدوا مع شارلمان الذي كان مهادنا للرشيد ومعاصرا له فرحب الرشيد بهذه الفكرة

ولكن زحف شارلمان سنة ٧٧٨ م باء بالفشل عندما أغلقت مدينة سرقوسطة في وجهه . وهجم على جيشه سكان الجبال . حتى فقد كثيرا من أتباعه ومتاعه . واستعان عبد الرحمن على الانتصار على شارلمان بجيش منظم أحسن تنظيم ومدرب أحسن تدريب . وكان يضم نحو أربعين ألف مقاتل من البرابرة الذين استجلبهم من أفريقيا . فلما خذل شارلمان يئس الرشيد منه ومن الاستيلاء على الأندلس .

وكان الرشيد كأبيه وجده شديد العداوة للأمويين ومنهم بنو أمية في الاندلس . وشارلمان لحبه في الفتح وأمنيته في رد الاندلس الى مملكته بعد أن اغتصبت من المملكة المسيحية . والأمر الثاني أن يسهل الرشيد لزوار بيت المقدس من المسيحيين الكاثوليكيين ويعفيهم من القيود والتكاليف التي وضعها الرشيد اذ ذاك على أهل الذمة

اما السفارة الثانية ، فقد أوفدها شارلمان الى الرشيد

وقد حفظت التحف والهدايا التي بعث بها الرشيد الى
شارلمان فكان بعضها من العاج وهو محفوظ للآن في مدينة
آخن . وطستا صغيرة من الذهب محلاة بقطع من الزجاج
الملونة الألوان ، وعليها صورة لكسرى الاول مصنوعة من
البلور ـ محفوظة في دار ... ، وقطعة من قطع
الشطرنج شرقية محفوظة في دار ... ، وابريقا من الذهب
محفوظا في دير كنتون فلس ... من النسيج
الذي يقال انه ... رأس المسيح عليه السلام عند صلبه

كما يحدثونا ان الرشيد أرسل الى شارلمان في سفارته
الاولى هدية فيلا ... يسمى أبا العباس ... وهدايا أخرى
.. وقد أحدث هذا الفيل شهرة واسعة لان الفرنج لم يكونوا
رأوا فيلا قط

وكان الرشيد قد أتى به من الهند . وبعد ذلك أرسل
شارلمان وفدا الى بلاط خليفة هرون الرشيد . وقد قالوا
انه مر في طريقه بالاراضي المقدسة ثم سار الى بلاط الخليفة
في بغداد

وقد أرسل الرشيد وفدا آخر الى شارلمان يحمل هدايا
ثمينة منها رخام ملون بألوان متنوعة جميلة ، ومنسوجات
من الحرير والكتان ، وروائح عطرية وشمع وساعة مائية
وأوان نحاسية . وقد أقام السفراء عند الامبراطور مدة ،
ثم أرسلوا الى ايطاليا حيث أبحروا من هناك الى المشرق

وقد أنكر بعض الباحثين من الفرنج حكاية هذه الوفود
بدعوى ان مؤرخي العرب لم يذكروها في كتبهم . ولكن
هذه الحجة لا تقنع . لان كثيرا من الحوادث حدثت في أوربا



الإمبراطور شارلمان يستعرض وفد هرون الرشيد الذى جاءه بالهدايا

ولم يذكرها مؤرخو العرب لجهلهم بها . خصوصا وان بقايا
هذه الهدايا محفوظة الى اليوم . ومن المؤكد انها مصنوعة
في الشرق . وليس من المعقول ان يشتريها اسحق اليهودي
من ماله وينسبها الى الرشيد .. فاسحاق أعجز وأحرص من
ان يفعل هذا

واحيانا كانت تصفو العلاقات بين الرشيد والبيزنطيين .
فقد روى سمير بيزنطي ان امبراطور القسطنطينية أوفد الى
الرشيد وفدا فاستقبل على بضعة فراسخ من بغداد . ومر
الوفد امام جيش مؤلف من مائة وثمانين الف مدججين
بالسلاح . وقدم للوفد فخم الهدايا من الخليفة الرشيد ،
منها مائة جواد أصيل مجهزة وثياب فاخرة . وفرش له في
الطريق ثمانية وعشرون الف طنفسة . تغطي ارض الطريق
.. ورأى عددا كبيرا من السفن كانت تمخر عباب نهر الدجلة
وانه سمع بداخل القصر زئير الاسود ورأى معها حراسها
الافريقيين ، مما أدهش الوفد

وكانت هذه الوفود تروي في القسطنطينية أو غيرها
حكايات تشبه الاحاديث العجيبة عما شاهدوه .. فتعظم
في أعينهم شأن الرشيد وشأن الشرق

وكانت عقلية الرشيد اذ ذاك أنضج وأوعى من عقلية
الغرب ... وكانت صنائعهم أدق وأجمل حتى ليحدثونا
ان الغربيين عجزوا عجزا شديدا عند رؤيتهم البوصلة
والساعة الدقاقة ، وظنوا من عجبهم أن فيهما شيطانين
يحركانهما ويديران هذه الاعاجيب

وكان من مقتضى هذه الحضارة التي شاهدناها في العصور

والعمارات والاسواق والهدايا . لن تصل الينا آثارها مما يدلنا عليها ولكن غزوة التتار التي حدثت في آخر الدولة العباسية وقضت عليها اذهبت آثارها وضاعت كنوزها . فقد كانت غزوة عنيفة جامحة لم يسبق لها في التاريخ مثيل .. قال السيد امير علي :

« ان هولاكو اصدر عند زحفه على بغداد امره بنهب المدينة وذبح اهلها حتى خرج الشيوخ والاطفال والنساء من المنازل حاملين المصاحف على اكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون الى الجنود شفقة بهذه الاكباد . ولكن الغزاة لم يعبأوا باستغاثتهم ، ووطئوا اجسامهم بحوافر خيولهم . وهجموا على نساء الاشراف والنبلاء

اما الكنوز الادبية والعلمية ومحتويات المدينة الاسلامية فقد دمرت تدميرا في خلال بضع ساعات . وظلت شوارع المدينة تجري فيها الدماء بضعة ايام حتى اصطبغ ماء دجلة بالدم لعدة اميال . وقد احرقت الجوامع والمساجد وانتهكت الحرمات بعد ان نهبت وقوضت القصور والجوامع اما بالنار او بالمعاول .. لانه كان يعطيهم ما نهبت من قبابها الذهبية واشعلوا النار في بساتين وقصور العلماء والادباء والقوا الكتب بعضها في النار وبعضها في نهر دجلة

وهكذا فقدت كنوز خمسة قرون وذهبت زهرة الامة فناء تاما .. »

عهد الرشيد لولديه

واهتدى الرشيد اخيرا الى ان يعهد بالخلافة للامين

والمأمون ، وقسم البلاد بينهما .. وبعدهما الى المعتصم ،
وقال انه إن الملك لا يحتمل الاشتراك . فلابد أن يتخاصم
الشريكان أو الشركاء ، ويغلب أحدهم . وهذا ما كان بعده

وفي سنة ١٨٦ هجرية حج الرشيد ومعه المرشحان
للخلافة الأمين والمأمون وقواده ووزراؤه وقضاته ، فعمد الى
وفي مناسك الحج كتب كتابين ، أشهد الفقهاء والقضاة
أنفسهم فيهما أن يؤدوا الكتابين بوفاء . أخذ فيهما على محمد
الأمين شروط عدة الوفاء بأن يولي المأمون خراسان وما
يليها ، ويوصي للمأمون فيه بالمال والضياع والغلال وأدوات
الحرب

والثاني يحوي صورة البيعة لهما وعلى أن أحدهما من
الخاصة والعامة . وجعل الكتابين في البيت الحرام تأكيدا
لهما ، وعليهما توقيع وزراء القادة والأمراء ووجوه بني
هاشم والقضاة والفقهاء بعد أن قرأ الرشيد قراءة الكتابين
ووقع عليهما . واعترضت زبيدة يوما أم الأمين بإعطاء
أدوات الحرب للمأمون فقال لها : إني أخاف على المأمون
من الأمين ، ولا أخاف على الأمين من المأمون .

وطمأنت نفس الرشيد بعض الشيء

كتاب المأمون للرشيد

وهذا نص الكتاب الذي كتبه المأمون لأبيه الرشيد يتعهد
فيه بتنفيذ العهود التي أعطيت له مما عهد الأمين العهود
عليه .

« بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا كتاب كتبه عبد الله ابن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز من أمره وصدق نية فيما كتب في كتابه هذا ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين

« إن أمير المؤمنين ولاني عهده وخلافته وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون أمير المؤمنين وولاني في حياته وبعد موته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها ، من الصدقات والعشر والبريد والطرز وغير ذلك .

واشـــترط لي على محمد بن هارون أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للبلاد والعبـــاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين أو ابتاع لي من الضياع والعقد والدور والرباع ، أو ابتعت لنفسي من ذلك وما أعطاني أمير المؤمنين هارون من الأموال والجوهر والكسى والمتاع والدواب لا يحاسبني في شيء ، ولا يدخل علي ولا على أحد كان معي ومني ، ولا عمالي ولا كتابي ومن استعنت به من جميـــع الناس مكروها في نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال ولا صغير ولا كبير وكتب بذلك كتابا وكتبه على نفسه

« وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه ولا أغشـــه ، وأوفي ببيعته وولايته ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبـــه وأموره وأحسن مؤازرته ومكانفته ، وأجاهد عدوه في ناحيتي ما وفى لي بما شرط لي ولعبد الله هارون أمير المؤمنين ورضي به وسلمه وإن احتاج محمد بن

أمير المؤمنين إلى جند وكتب إلي يأمرني بإشخاصهم إليه أو إلى ناحية من النواحي أو عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقض شيء من سلطانه الذي أسنده هرون أمير المؤمنين إلينا، وولاناه، فعلي أن أنفذ أمره، ولا أخالفه ولا أقصر في شيء كتب به إلي.

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين أن يولي رجلا من ولده العهد من بعدي، فذلك له ما وفى لي بما جعل لي أمير المؤمنين هرون، واشترط لي عليه، وشرطه على نفسه في أمري، وعلي إنفاذ ذلك والوفاء له به، ولا أنقض ذلك ولا أغيره، ولا أبدله، ولا أقدم قبله أحدا من ولدي، ولا قريبا، ولا بعيدا من الناس أجمعين، إلا أن يولي هرون أمير المؤمنين أحدا من ولده العهد من بعدي، فيلزمني ومحمدا الوفاء بذلك.

وجعلت لأمير المؤمنين هرون ولمحمد بن أمير المؤمنين جميع ما شرطت لهرون أمير المؤمنين في نفسي، وما أعطيت أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسماة في الكتاب الذي كتبه لي، وعلي عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي، وذمم آبائي وذمم المؤمنين، وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين وخلقه أجمعين من عهوده ومواثيقه والأيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها، فإن أنا نقضت شيئا مما شرطت وسميت في كتابي هذا أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت فبرئت من الله ومن ولايته ومن دينه ومن محمد رسول الله ولقيت الله يوم القيامة كافرا به مشركا، وكل امرأة هي اليوم لي أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتة .. طلاق الحرج، وكل مملوك لي اليوم أو أملكه

إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله ، وعلي المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة نذرا واجبا علي وفي عنقي حافيا راجلا لا يقبل الله مني إلا الوفاء به ، وكل مال هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة ، وكل ما هو لعبد الله أمير المؤمنين مما في هذا الكتاب لا أضمر غيره ولا أنوي سواه » ..

وشهد الشهود ممن شهدوا على بيعة محمد بن أمير المؤمنين .

وقد كانت هذه غلطة كبرى من الرشيد ، فلم يعهد أحد قبل الرشيد لاثنين يتوليان في وقت واحد ، لأنه كان من البداهة أن الخليفة لا يمكن أن يتسع صدره لمنافس له ، وتلك حال طبيعية ، ولكنه كان تحت ضغط عقله وعاطفته ، فهو يحب الأمين ، حتى في أثناء عهد رشده واقتنع من الربيع باستمرار عهده إلى الأمين .

وعقل الرشيد يدعوه لأن يبايع أكبر أولاده .. ولكن المأمون من غير شك أكفأ ، فيسمح عقله ببيعة المأمون .. ويسمح لعاطفته ببيعة الأمين .

ولو خضع لعقله لاكتفى بمبايعة المأمون وحده ، واعتمد على الكفاية وحدها ، وعلم أن الملك لا يتسع لرجلين كالألوهية . والله تعالى يقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .

ولم يعتبر الرشيد بتجارب الأمم وأحداث الزمان ، فكان من أشهر الحوادث التي فيها عبرة ما حدث

الاسكندر .. فقد كان ملكه أكبر من ملك الرشيد . ولما
مات اقتسمه قواد أربعة ملكه فملك بطليموس مصر وجزءا
من سوريا وملك آخر مقدونيا وبلاد اليونان . وملك ثالث
بعض أجزاء آسيا الصغرى . وملك الرابع من البحر الأسود
الى نهر السند .. [illegible] سلوقس [illegible] حتى
[illegible] على [illegible] واستطاع بعده [illegible]
استقلال أجزاء [illegible] على بلاد [illegible] وضمها الى أملاكها ..
حتى أصبحت [illegible] جزءا من مملكة الرومان فقد استقلالها
وعاش تحت حكمها .. وهكذا أحداث التاريخ ..

□

وفي آخر جزء [illegible] هؤلاء ما
[illegible] في [illegible] حتى شككا
الرشيد نفسه [illegible] من ولاء [illegible]
في [illegible]
[illegible] في [illegible] . . .
[illegible]
[illegible] العصبية [illegible] الى أقصى حد .
فتعصب العرب [illegible] وتعصب [illegible] . وتقاتلا
قتالا عنيفا [illegible] تذكيه هذه العصبية ، حتى اذا انتهت
الحرب [illegible] بعد انتصار [illegible] كما ذكرنا
[illegible] كلها في يد المأمون ..
وكانت القوة الحربية [illegible] في يد الامين [illegible] لا تعدو
العصبية العربية . ولذلك انتصر المأمون .. يضاف الى

ذلك أن العرب قد غلبهم الفرس واستعبدوهم و ذلوهم من أول بدء الخلافة العباسية الى عهد المأمون فلم تكن ثمة بقية صالحة

=

ويروون أن الكتاب لما رفع [illegible] الأمر سريع الانقضاض [illegible] والايمان بجانب ما في النفس [illegible] وكراهة المشاركة في [illegible] الرشيد [illegible] البشرية . فروى الكسائي . قال

« دخلت على الرشيد [illegible] حتى [illegible] وبين الطعام . فقال [illegible] لم أزل [illegible] حتى [illegible] عامة من كان في مجلسه ولم يبق الا خاصته . فقال لي : يا علي ، ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله ؟ » قلت « ما أسرعني اليهما يا أمير المؤمنين ، وأسرني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما » . فأمر بإحضارهما ، فلم ألبث أن أقبلا . . كالكوكبين [illegible] عليهما الوقار [illegible] قد غضا أبصارهما وقاربا خطوهما ، حتى وقفا على باب المجلس فسلما على أبيهما بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء . فأمرهما بالدنو منه ، فصير محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره . ثم أمرني أن استقرئهما وأسألهما ففعلت ، فما سألتهما عن شيء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه . فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ، ثم قال لي : يا علي . . كيف ترى مذهبهما

وحوائجهما ، فقلت : يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر » :

أرى عمري مخه وفرعي حلائه يزينهما عرق كريم ومحتد

« يا أمير المؤمنين .. هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه. وتمكنت في الثرى عروقه وعذبت مشاربه . أبوهما أعز الله الأمر ، نسيج أعظم الحلم ، ويستحكمان بحكمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان في سعادته

« فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أعذب لسنا ولا أحسن ألفاظا . ولا أشد اقتدارا على تأدية ما حفظ منهما . ودعوت لهما دعاء كثيرا . وأمن الرشيد على دعائي ثم ضمهما اليه وجمع يديه عليهما ، فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ثم أمرهما بالخروج

« فلما خرجا أقبل علي فقال : كأنك بهما وقد حم القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب أجله . قد تشتت كلمتهما واختلف أمرهما . ثم لم يبرح ذلك حتى تسفك الدماء وتنتهك المحارم وتهتك ستور النساء ويتمنى كثير من الأحياء أنهم في عداد الموتى) . قلت : (أيكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رؤي في أصل مولدهما . أو لأمر وقع لأمير المؤمنين في مولدهما) . فقال : (لا والله .. انما بأثر حملته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء)

ومرة أخرى ، قال لمروان الخادم : علي بيحيى .. فلما مثل أمامه . قال : يا أبا الفضل .. ان رسول الله مات في غير وصية والاسلام حدث والايمان جديد . وكلمة

العرب مجتمعة . وقد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل . فما لبثت أن ارتدت عامة العرب على أبي بكر . وكان من خبره ما قد علمت وان أبا بكر صير الأمر الى عمر .. فسلمت الأمة له . ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت الى غير أهلها . وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره الى من أرضى سيرته واحمد طريقته وأثق بحسن سياسته . وآمن ضعفه ووهنه . وهو عبد الله المأمون . وبنو هاشم مائلون الى محمد « الأمين » بأهوائهم . وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوت يده ومشاركة النساء والاماء في رأيه

« فان ملت الى عبد الله أسخطت بني هاشم . وان أفردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية . فأشر علي في هذا الأمر برأيك فيك مشورة يعم نفعها . فانك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر »

فقال « يا أمير المؤمنين ان كل زلة مستقالة . وكل رأي يلاقي خلا هذا العهد . فان الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لا تستدرك . وللنظر فيه مجلس غير هذا . فعلم الرشيد انه يريد الخلوة . قال الاصمعي « فأمرني بالتنحي .. فقمت وقعدت في ناحية بحيث أسمع كلامهما .. فما زالا في مناجاة ومناظرة طويلتين حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الرشيد الأمر لعبد الله مع محمد »

وهكذا كان الرشيد ، كأنه يقرأ حجب الغيب ، وكان

يتخوف من النتائج التي قد تنجم من هذا العهد .. ويفكر ويطيل التفكير ويستشير ويكثر الاستشارة

فما مات [illegible] حتى نقض الأمين العهد ، وأراد أن يخلع المأمون وينفرد بالسلطان .. وكان بينهما من الحروب ما لا نتعرض له الآن

وعلى كل حال كانت عقدة عقدها بنفسه عهد الرشيد .. حلها بهذا الشكل الذي لم ينجح

نهاية الرشيد



مرض الرشيد وموته

وفجأة أحس الرشيد مرضا .. فبال في قارورة ودس قارورته في قوارير المرضى بعد أن أعلمها ، ثم عرضت القوارير على الطبيب . وكان بختيشوع الأول معروف في عصر الرشيد . فلما نظر الطبيب إلى قارورة الرشيد قال : عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك .. فليوص ، فإنه لا برء له من هذه العلة .. فبكى الرشيد وجعل يردد هذين البيتين :

إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع محذور أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرئ مثله فيما مضى

واشتد ضعفه وأرجف الناس بموته .. ودعا بحمار ليركبه ، فهدلت فخذاه ، فلم يثبت على السرج ، فقال : « أنزلوني ، صدق المرجفون » . وأمر في [illegible] [illegible] حتى كان [illegible]

يحدثنا جبرائيل بن بختيشوع ، فيقول : « كنت مع الرشيد في قصره في الرقة ، وكنت أول من يدخل عليه في كل غداة ، فأتعرف حاله .. فإن كان أنكر شيئا وصفه ثم يتبسط فيحدثني بحديث جواريه ، وما عمله في مجلسه ، ومقدار شربه وساعات جلوسه ، ثم يسائلني عن أخبار العامة وأحوالهم .. فدخلت عليه في بعض الأيام فلم يكد يرفع طرفه ، ورأيته مفكرا مهموما ، فوقفت بين يديه مليا فلما

قال يحيى : لقد صحت عندي [illegible] يا سيدي .. جعلني الله فداك ، هل حالك هكذا ؟ أعمه وحسرني [illegible] ، ولعله يكون عندي دواء ، أو حيلة في بعض ما تحب ، فعسى ما لا [illegible] ولا حيلة فيه إلا [illegible] لإدراك فيه ، أو فيمن ورد [illegible] في ملكك ، فلم يحن [illegible] من ذلك ، بل أولى من أفضيت إليه بهذا الخبر »

وقال الرشيد : « ليس شيء ذكرته كما ذكرت ، ولكن رؤيا رأيتها في هذه الليلة وقد أفزعتني »

فقال يحيى : [illegible] الغم كله لرؤيا ، وهي إنما تكون من خطرات [illegible] أو من بلابل السوداء ، وإنما هي أضغاث أحلام ، فما هي إذا ؟ »

قال : « رأيت كأني جالس على سريري هذا إذ بدت من تحتي ذراع أعرفها وكف أعرفها .. وفي الكف تربة حمراء ، وقال لي قائل أسمعه ولا أرى شخصه « هذه هي التربة [illegible] فيها » فقلت : « وأين هذه التربة ؟ » فقال « في طوس » وغابت اليد وانقطع الكلام » فقال : « يا سيدي هذه والله رؤيا بعيدة .. أحسبك أخذت مضجعك وفكرت في خراسان وحروبها وما قد ورد عليك من انتقاض بعضها .

قال : « قد كان ذلك » ، فقال : « فلذلك أفكر خاطرك في مضجعك فولد هذه الرؤيا ، فلا تحفل بها وأتبع هذا الغم سرورا يخرجه من نفسك »

فسري عنه وأمر بإعداد ما يشتهيه ويزيد في لهوه و[illegible] تلك الرؤيا .. وما خطرت لنا بعد على بال . ثم

سار الى خراسان فلما كان في بعض الطريق اشتدت به العلة . فلم يزل يداريها حتى دخل طوس

فذكر يوسف بن [illegible] رأيت هرون متحملا بحزم وسقط وجمعنا انه كان يقول [illegible] ثم رفع راسه فقال [illegible] حين تذكر رؤياي [illegible] ثم رفع راسه الى مسرور وقال جئني من تربة هذا المكان . فمضى مسرور فجئ بتربة حمراء . فقال الرشيد صدق والله [illegible] رأيتها في منامي واقبل على البكاء والنحيب ثم مات به

وذكر وهو يجود بنفسه قول الشاعر

واني من قوم كرام يزيدهم شماسا وصبرا شدة الحدثان

ومات وهو ابن خمس واربعين سنة . ويحدث المؤرخون انه كان جميلا وسيما ابيض جعد الشعر . وقد وخطه الشيب في آخر ايامه

خاتمة

ونحن اذا احصينا عمر الخلفاء الامويين والعباسيين وجدنا متوسط حياتهم بين الخمسة والأربعين والخمسين ، وبعبارة أدق حول ٤٨ سنة . وعلة قصر عمرهم لشدة مشاغلهم وافراط أكثرهم في الشهوات ، وتحميلهم أكبر المسؤوليات ، وتسلطهم من أصل قصر عمره

وذكر المسعودي أن محمد بن علي العبدي العبد[illegible] الخراساني الاخباري أن الخليفة القاهر كان شديدا معجبا مشغوفا بهذه الاشياء ويحبون معرفته . قال العبدي

هذا الجوهري عن بني العباس أخلاقهم وشيمهم ، من أبي العباس الى من دونه

فقال المهدي : « على أن لي الأمان يا أمير المؤمنين »

قال : « ذلك لك »

قال : أما أبو العباس عبد الله فكان سريعاً الى سفك الدماء واتبعه عماله في المشرق والمغرب واستنوا بسيرته . أما المنصور فكان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس ابن عبد المطلب وبين آل أبي طالب . وقد كان أمرهم قبل ذلك واحداً . وكان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسي المنجم وأسلم على يديه . وابراهيم الفزاري المنجم وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية الى العربية .. منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند

« وترجمت له كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها . وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الارثماطيقي وكتاب اقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية . وخرجت الى الناس فنظروا فيها وتطلعوا الى علمها . وفي أيامه وضع محمد بن اسحق كتب المغازي والسير وأخبار المبتدأ . ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة . وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم في مهماته . وقدمهم على العرب فامتثل ذلك الخلفاء من بعده من ولده فسقطت العرب وزال بأسهم ، وذهبت مراتبهم

ولما أفضت الخلافة الى المنصور نظر في العلوم وقرأ المذاهب

وارتخص في الآراء ووقف على النحو، فكثرت في أيامه
روايات الناس واتسعت عليهم علومهم، وجاء بعده المهدي
فكان سمحا سخيا كريما جوادا، فسلك الناس في عصره
سبيله وذهبوا في أمورهم مذهبه واتبعوه في مستعمليه.
وكان من فعله في ركوبه أن يحمل معه بدر الدراهم
والدنانير، فلا يسأله أحد إلا أعطاه، وأمعن في قتل
الملحدين والمذاهبين لظهورهم في أيامه وإعلانهم اعتقاداتهم
في خلافته، لما انتشر من كتب ماني وديصان مما نقله
عبد الله بن المقفع وغيره.

وترجمت في أيامه كتب من الفارسية واليونانية إلى
العربية. فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس.
وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين
بتصنيف الكتب للرد على الملحدين وإقامة البراهين على
المعاندين. وشرع في بناء المسجد الحرام، ومسجد النبي
عليه السلام، وبنى بيت المقدس، وقد كان هدمته
الزلازل.

وجاء بعده الهادي، فكان جبارا عظيما وكان أول من
مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والأعمدة
المشهورة والقسي الموتورة، فسلك عماله طريقته ويمموا
منهجه وكثر السلاح في عصره.

وجاء بعده الرشيد فكان مواظبا على الحج والغزو واتخاذ
المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة ومنها
عرفات ومدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فعم الناس
إحسانه مع ما قلده به من جوده ثم بنى الثغور ومدن المدن

وحسن [illegible] ولادة [illegible] الصنعة
ونقش [illegible] وحكمة [illegible] من دور السبيل
[illegible]
[illegible]
الحق [illegible] الاملاء [illegible] على [illegible] الأمير [illegible] وكان احسن
الناس في أيامه أم جعفر [illegible] احدثته من
دور السبيل بمكة واتحاد [illegible]
[illegible] احدثته من الدور
[illegible] وقف على ذلك
من [illegible]
[illegible] من الصناعة

[illegible]
[illegible]
[illegible] وكان
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible] أعمال [illegible]
أم جعفر [illegible]

[illegible] للاتحاد [illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]

لخدمته التي لم تكن في الإسلام قبله حتى جرى مجرى
المعروفة عن الشذوذ بجماعة [illegible] الأولى على أنه
عدا ما كان في وقته من ميل نوع عن أهل [illegible] فيه من
المعروف والخصب

وأما بوجه الثاني فهو ما تشير به المروج في عصرها ويقولون إنه في أيامها هي أول من اتخذ الآلات من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ الثوب الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار، وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري يختلفون على الدواب في جهاتها ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها، وأول من اتخذ القباب من الفضة والآبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج، وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر، واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر ولما أفضى الأمر إلى ولدها الأمين، ورأت شدة شغفه بالخدم واستعانته بهم اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق فماست قدودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن إليه فاختلفن في يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه وأبرزهن للناس واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن الغلاميات

الخلاصة

ونحن إذا لخصنا صفات الرشيد من كل ما رأينا،

عرف أنه كان في جسمه أبيض جميلا ، جعد الشعر ، قد وخطه الشيب .. وفي عقله متفتحا واسع الثقافة في العربية والفارسية .. وفي أخلاقه حاد العاطفة ، قد يغضب لأتفه سبب ، ويقتل لأتفه سبب ويعفو لأتفه سبب ، نجده لا يعد حد فيحارب حروب الأبطال ويعلو على كل السورات ، ويصلي ويحج ويقود الصائفة أحيانا والشاتية أحيانا ، ويساعي فيأتي بعجب العجائب أمام الوفود والزائرين ويخاشع فيبكي بكاء مرا ، ويلهو فيكون له المجالس الرائعة في الغناء والرقص وما إلى ذلك ..

وعنده كلها سمة العاطفة الحادة .. وله إلى جانب ذلك ضمير حي ينكب البرامكة أحيانا ثم يحزن لفقدهم ، ويقتل الطالبي ويحزن لقتله ، ويحبس ثم يندم فيطلق ، ويقول فيحسن القول ، ويشرف على أولاده فيحسن تربيتهم ، ويسمع الشعر فيتذوقه

ويظهر أنه كان متدينا شديد التدين ولكن ليس واسع الصدر في دينه سعة ابنه المأمون .. سمع مرة أن بشرا المريسي يقول بخلق القرآن ، فقال والله لئن وجدته لأقتلنه . فإيمان الرشيد كإيمان العجائز . وكان وديعا حتى ليصب الماء على يد ضيفه إذا كان من العلماء . وقد روى أبو معاوية ، قال : أكلت مع الرشيد يوما ثم صب على يدي رجل لا أعرفه . ثم قال الرشيد : أتدري من يصب على يديك ؟ قال : لا . قال الرشيد : أنا إجلالا للعلم !

وكان قريب الدمع مما يدل على شدة عاطفته ، حتى قال منصور بن عمار : ما رأيت أغزر دمعا عند الذكر من ثلاثة

الفضيل بن عياض ، والرشيد ، وآخر ..

وكان كريما فكم روى من عطائه مئات الألوف .. اما لمن يجيد الغناء ، أو لواعظ يحسن الوعظ فيبكيه أو لشاعر يمدحه فيعرف كيف يمدحه أو غير ذلك

وقد قالوا انه كان يمضي اثر جده المنصور في حزمه وشدته واحساسه بالنعمة الا للبخل .. فقد عرف المنصور به وعرف الرشيد بالكرم وزاد الرشيد قوة وعظمة كثرة النابغين حوله في مختلف العلوم والفنون ، فالأصمعي في اللغة . وأبو يوسف في الفقه ، واسحاق الموصلي في الغناء ، والبرامكة للوزارة مما جعل قصره كعبة يحج اليها وعروسا تتباهى بجمالها ..

ولم يجد له نظيرا في الخلفاء يجد فيحسن الجد ، ويلهو فيحسن اللهو .. بل هم في الأغلب الأعم اما جاد لا يلهو كجده المنصور ، أو لا يجد كابنه الأمين

والمعروف من جميع الأوصاف التي ذكروها انه مات بالسرطان ، وقد قالوا انه لما حضرته الوفاة غشي عليه ، ففتح عينيه فرأى الفضل بن الربيع فقال يا فضل

أحين دنا ما كنت أخشى دنوه

رمتني عيون الناس من كل جانب

فأصبحت مرحوما وكنت محسدا

فصبرا على مكروه امن العواقب

أحين دنا ما كنت ارجو دنوه رمتني عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوما وكنت محسدا فصبرا على مكروه امن العواقب

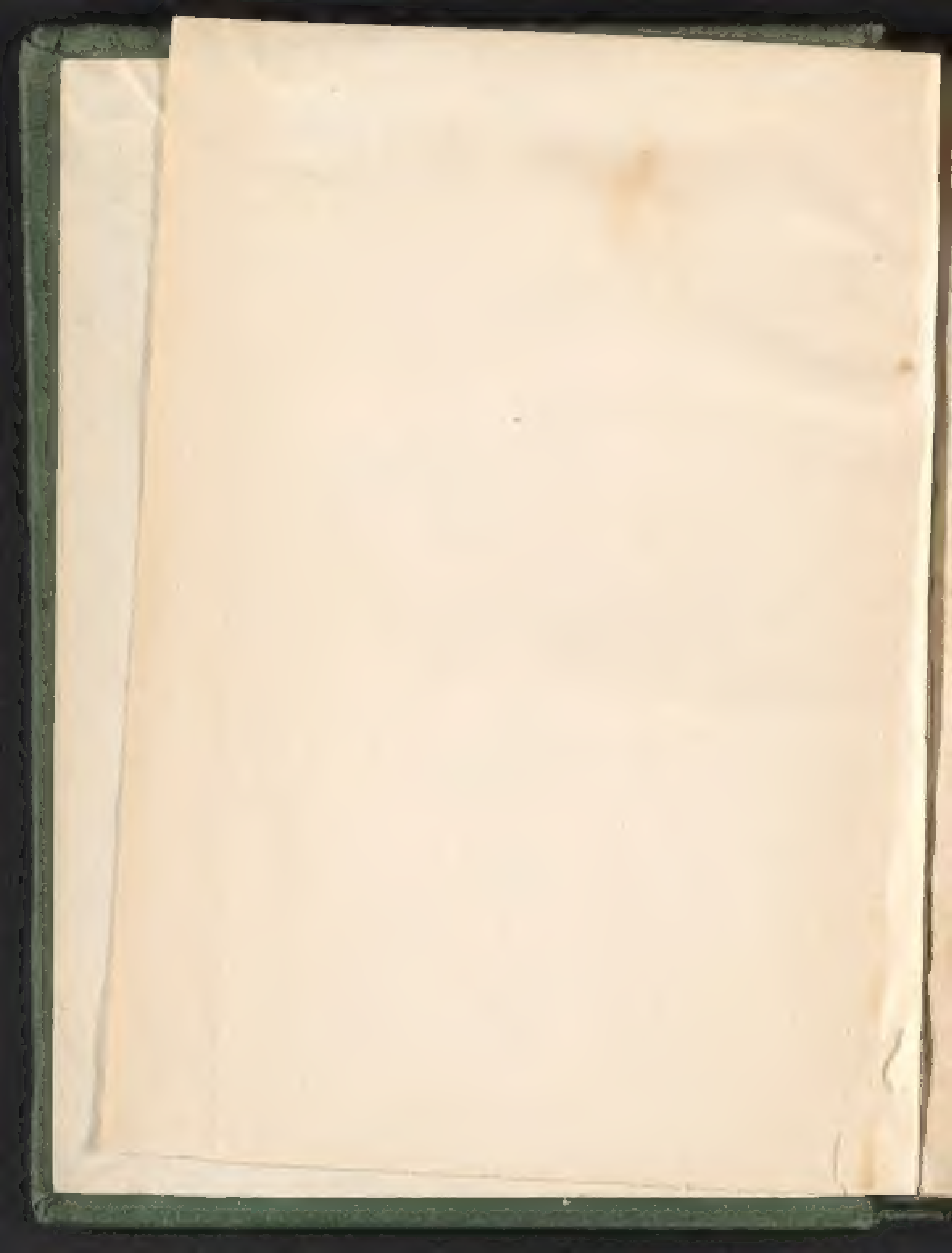
فرحمة الله عليه

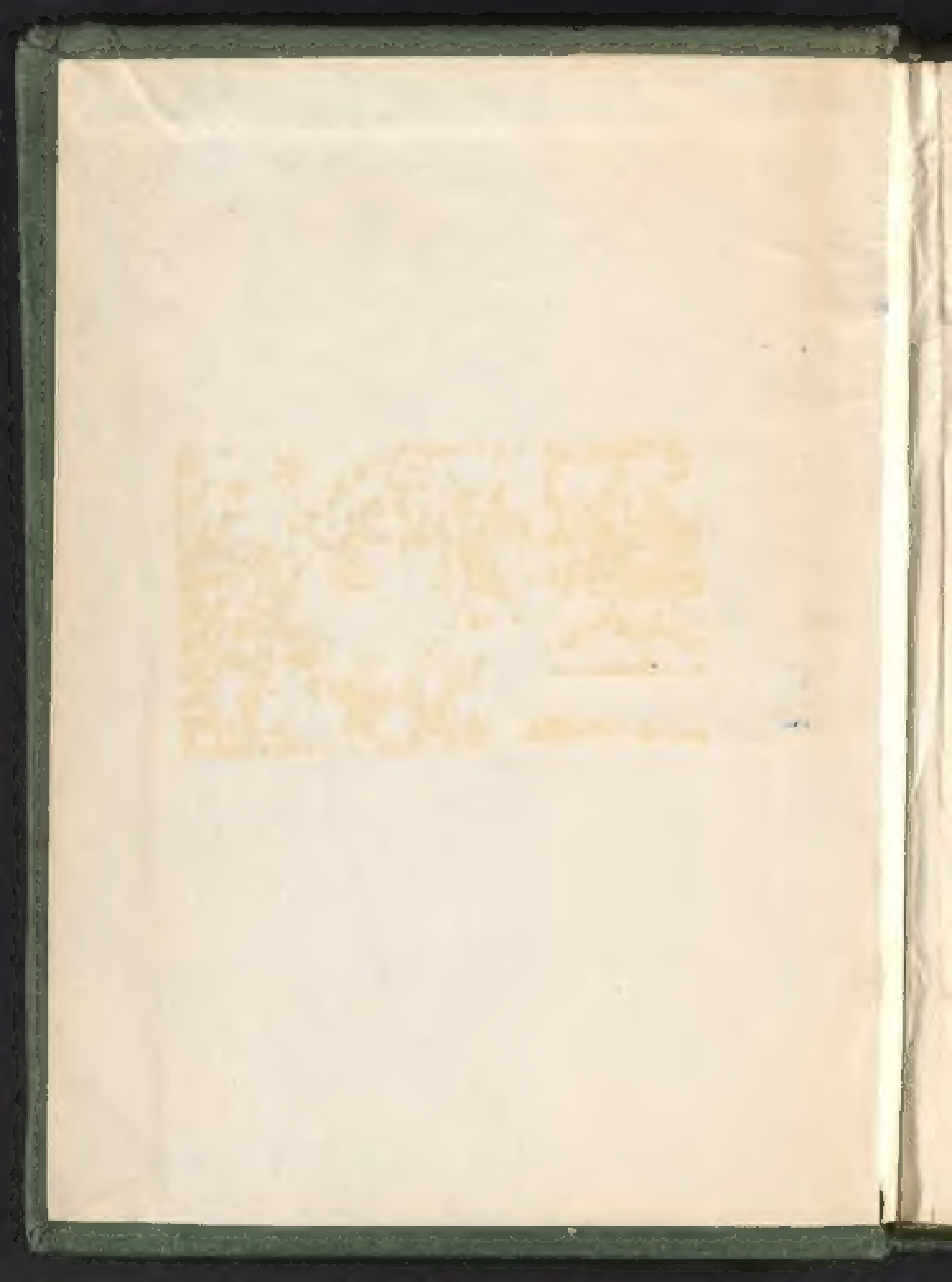
جدول بأهم الأحداث التي وقعت في عهد الرشيد

من سنة ١٧٣ الى سنة ١٩٣ الهجرية

سنة	
١٧٣	موت الخيزران
١٧٥	موت الليث بن سعد
١٧٥	عهد الرشيد لابنه محمد بولايه العهد
١٧٦	غضب العصبيه بدمشق بين اليمنيه والمضريه
١٧٧	ولاية هرثمة بن أعين بلاد افريقيه
١٧٨	فتنة أهل الحوف بمصر
١٧٩	موت الامام مالك
١٧٩	سفر جعفر بن يحيى البرمكي الى الشام لاخماد العصبيه بين اليمنيه والمضريه فسكنها
١٨٠	موت يزيد بن مزيد الشيباني أحد قواد الرشيد
١٨٦	حج الرشيد ومعه وليا عهده الأمين والمأمون
١٨٧	مبايعه الرشيد لابنه القاسم بولايه العهد بعد المأمون
١٨٧	نقض نقفور العهد للرشيد
١٨٧	عوده العصبيه بين المضريه واليمنيه في الشام
١٨٧	نكبة البرامكه
١٨٩	سفر الرشيد الى الري لعدم اطمئنانه الى أهل خراسان
١٩٣	موت الفضل بن يحيى
١٩٣	خروج الرشيد الى طوس
١٩٣	موت الرشيد

فهرس







هرون الرشيد ـ العدد الثالث من «كتاب الهلال» ـ هو لون جديد من الثقافة التاريخية ، وترجمة شائقة لحياة هذا العاهل العظيم الذى طبقت شهرته الاقطار، وكان يحكم دولة عربية اتسعت رقعتها حتى فاقت مساحة أوربا ، وبلغت حضارة الاسلام اوجها فى عصره الذهبى ، ودانت له الممالك والامصار ، وخطب وده الملوك والامراء . وكانت بغداد عروس المدن ، ودرة الدنيا ، ومدينة النور والسلام

وقد جلا مؤلف هذا الكتاب حياة الرشيد الخاصة والعامة ، وصور فى تشويق عصره الذهبى من جميع نواحيه السياسية والادبية والاجتماعية، وكشف عما فيه من محاسن وعيوب فى صراحة وصدق ، وقدم هرون الرشيد انسانا وملكا وخليفة للمسلمين

وعلى الرغم من ان عصره امتاز بالابهة والترف ، فقد بلغت فيه العروبة اوج مجدها وكرامتها . وكان الشرق فى ايامه يحكم الغرب ويوجه مصائر الامم ، ويحمل مشاعل العلوم والآداب والحضارة الانسانية . . فأجدر بنا فى كتاب الهلال أن نذكر الامم العربية الآن بهذا المجد التالد ، وما كان للعرب من قوة وصولة ، وحرية واستقلال